مفاتيح السور

الجزء الثاني

عبدالحي حسين محمد الفرماوي

مفاتيح سورة الأنفال

أولاً:اسم السورة

لهذه السورة عدة أسماء :

فهى تسمى :

١-الأنفال (١) .

وذلك : لكونها مفتتحة بالأنفال ، فى قوله تعالى ويسألونك عن الأنفال . والحديث – كذلك – مكرر عن هذه الأنفال، فى السورة.

وكذلك (٢) : فهى منتهى ما ذكر فيها ، من أثر أمر الحرب .

ويضاف إلى هذا الاسم كذلك :

٢- سورة بدر(٣) .

وذلك : لحديثها المستفيض عن غزوة "بدر" ، وما جرى فيها.

كما أنها نزلت – كذلك – عقيبها ، وبسببها .

فقد أخرج سعيد بن منصور ، والبخارى ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ، وابن مردويه ، عن سعيد بن جبير ، قال : قلت لابن عباس : سورة "الأنفال" .. ؟ قال: نزلت فى بدر – وفى لفظ – تلك "سورة بدر"(٤) .

ويضيف الإمام البقاعى إلى أسمائها .. ما يلى :

٣- الجهاد(٥) .

وذلك : لأن موضوعها .. هو القتال والجهاد ، وما يتعلق به .

ويذكر الإمام السخاوى .. أنهم كانوا يسمونها مع التوبة .

٤- القرينتين(٦) .

ويبدو أن ذلك : لأن بعض العلماء ؛ اعتبرها مع التوبة سورة واحدة، وجعلوها السورة "السابعة" من السبع الطوال، إذ أنهما تكملان بعضها البعض، ومن ثم : لم يفصل بينهما الصحابة { بسم الله الرحمن الرحيم }(٧).

ثانياً : عدد آيات السورة و كلماتها و حروفها

عدد آياتها :

خمس وسبعون (٧٥) .

وعدد كلماتها:

ألف ومائتان وواحد وثلاثون كلمة (١٢٣١) .

وعدد حروفها:

خمسة آلاف ومائتان وأربعة وتسعون حرفاً (٥٢٩٤) .

ثالثاً : ترتيب السورة فى المصحف و فى النزول

ولهذه السورة – شأن جميع السور – ترتيبان :
الأول : فى المصحف الشريف .
والثانى : ترتيبها فى النزول .
أما بالنسبة لترتيبها فى المصحف الشريف : فهى – كما هو معروف – السورة الثامنة
حيث قد سبقتها سور: الفاتحة ، البقرة ، آل عمران، النساء ، المائدة ، الأنعام ، الأعراف .
وأما بالنسبة لترتيبها فى النزول : فقد تعددت فيها الأقوال .
فمن قائل: أنها نزلت بعد آل عمران ، وقبل الأحزاب .. وقد نسب هذا القول إلى عكرمة والحسن بن أبى الحسن ، كما فى كتاب "دلائل النبوة للبيهقى" .
ومن قائل : أنها نزلت بعد المائدة ، وقبل التوبة ، كما فى كتاب "فضائل القرآن" لأبى عبيد .
إلى غير ذلك من الأقوال .

ويرى الشهيد سيد قطب : أنها نزلت بعد سورة البقرة .
ويقول رحمه الله : نزلت فى غزوة بدر الكبرى فى شهر رمضان من العام الثانى للهجرة ، بعد تسعة عشر شهراً على الأرجح .
ثم يقول : ولكن القول بأن هذه السورة نزلت بعد سورة البقرة ، لا يمثل حقيقة نهائية .
فسورة البقرة لم تنزل دفعة واحدة ، بل إن منها ما نزل فى أوائل العهد بالمدينة، ومنها ما أنزل فى أواخر هذا العهد، وبين هذه الأوائل وهذه الأواخر نحو تسع سنوات.
ومن المؤكد أن سورة الأنفال نزلت بين هذين الموعدين .
وأن سورة البقرة قبلها وبعدها ظلت مفتوحة، تنزل الآيات ذوات العدد منها بين هذين الموعدين، وتضم إليها وفق الأمر النبوى التوقيفى .
ولكن المعول عليه فى قولهم "إن هذه السورة نزلت بعد هذه السورة" :
هو نزول أوائل السور .
ثم نبَّه إلى ملحوظة هامة فى هذا الخصوص بقوله عليه رحمه الله :
إن الترتيب الزمنى للنزول لا يمكن القطع فيه الآن بشئ – اللهم إلا من ناحية أن هذا قرآن مكى ، وهذا قرآن مدنى على وجه الإجمال ، على ما فى هذا من خلافات قليلة –.
فأما الترتيب الزمنى المقطوع به من ناحية زمن نزول كل آية، أو كل مجموعة من الآيات ، أو كل سورة : فيكاد يكون متعذراً ، ولا يكاد يجد الإنسان فيه اليوم شيئاً مستيقناً ، إلا فى آيات معدودات تتوافر بشأنها الروايات ، أو تقطع بشأنها بعض الروايات .
وعلى كلٍّ ما فى محاولة تتبع آيات القرآن وسورة وفق الترتيب الزمنى للنزول .. من قيمة ، ومن مساعدة فى تصور منهج الحركة الإسلامية، ومراحلها وخطواتها :
فإن قلة اليقين فى هذا الترتيب تجعل الأمر شاقاً ، كما أنها تجعل النتائج التى يتوصل إليها تقريبية .. ، وليست نهائية يقينية ، وقد تترتب على هذه النتائج التقريبية .. نتائج أخرى خطيرة .

وبعد كل هذا .. فقد بقى أن نبحث عن الإجابة عن سؤال هام .
وهو: هل وضعها هذا بين الأعراف والتوبة توقيفى ، أو أنه تم باجتهاد من الصحابة رضوان الله عليهم..؟

فى هذا الموضوع : تفصيل نحاول – بتوفيق الله تعالى – اختصاره وتقديمه واضحاً – بعون الله تعالى – على النحو التالى :

القول الأول : أن ترتيبها .. ليس بتوقيف من النبى صلى الله عليه وسلم ، بل هو اجتهاد من الصحابة رضوان الله عليهم .

وقد ذهب إلى هذا القول : الإمام البيهقى فى دلائل النبوة ، وتابعه فى ذلك الإمام السيوطى .

القول الثانى : أن ترتيب سورة الأنفال فى المصحف الشريف .. ليس باجتهاد من أحد ، بل هو بتوقيف من النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد ذهب إلى ذلك : بقية العلماء .

ونعرض فيما يلى الأدلة .. عليها ، ليستبين لنا – إن شاء الله – الصواب من هذه الأقوال .

أولاً: ما استدل به الإمام البيهقى .

استدل الإمام البيهقى على أن ترتيب الأنفال على هذا النحو اجتهادى .

وليس توقيفياً – كما يحكى عن صاحب المنار (٩)– بهذه الرواية :

أخرج أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال : قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى "الأنفال" وهى من "المثانى" ، وإلى "براءة" وهى من "المتين" ، فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا بينهما سطر .

(بسم الله الرحمن الرحيم) ، ووضعتموها فى السبع الطوال .. ؟

فقال عثمان : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السور ، ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشئ: دعا بعض من كان يكتب ، فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا.

وكانت "الأنفال" من أوائل ما نزل فى المدينة .

وكانت "براءة" من أواخر القرآن نزولاً.

وكانت قصتها شبهة بقصتها ، فظننت أنها منها.

فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يبين لنا أنها منها .

فمن أجل ذلك : قرنت بينهما ، ولم أكتب سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتهما فى السبع الطوال(١٠) .

ثانياً : ما استدل به الإمام السيوطى

يقول الإمام السيوطى – نقلاً عن روح المعانى (١١)– وقد كان يظهر فى بادئ الرأى أن المناسب :

إيلاء الأعراف بيونس وهود ؛ لاشتراك كل فى اشتمالها على قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأنها مكية النزول .

خصوصاً: أن الحديث ورد فى فضل السبع الطول ، وعدوا والسابعة "يونس" – وكانت تسمى بذلك ، كما أخرجه البيهقى فى الدلائل – ففى فصلها من الأعراف بسورتين : فصل للنظير من سائر نظائره .

هذا : مع قصر سورة الأنفال بالنسبة "للأعراف" و "براءة"

يقول :

وقد استشكل ذلك قديماً حَبر الأمة رضى الله تعالى عنه ، فقال لعثمان رضى الله عنه : ما حملكم .. [الخير السابق] .

ثم قال السيوطى : وأقول :

يتم مقصد عثمان رضى الله عنه فى ذلك بأمور ، فتح الله بها :

الأول : أنه جعل "الأنفال" قبل "براءة" مع قصرها ؛ لكونها مشتملة على البسملة .

فقدمها .. لتكون كقطعة منها ، ومفتتحها ، وتكون براءة ، لخلوها من البسملة : كتتمتها ويقينها .

ولهذا قال جماعة من السلف : إنهما سورة واحدة .

الثانى : أنه وضع براءة هنا ، لمناسبة الطول ، فإنه ليس بعد الست السابقة سورة أطول منها.

وذلك : كاف فى المناسبة .

الثالث : أنه فصل بالسورتين أثناء السبع الطوال ، المعلوم ترتيبها فى العصر الأول ، للإشارة إلى أن ذلك أمر صادر لا عن توقيف ، وإلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض قبل أن يبين كليتهما ، فوضعا هنا كالوضع المستعار، بخلاف ما لو وضعا بعد السبع الطوال فإنه كان يوهم أن ذلك محلهما بتوقيف، ولا يتوهم هذا على هذا الوضع ؛ للعلم بترتيب السبع.

يقول : فانظر إلى هذه الدقيقة التى فتح الله بها ، ولا يغوض عليها إلا غواص.

الرابع : أنه لو أخرهما وقدم يونس ، وأتى بعد براءة بهود – كما فى مصحف أبَىّ – لمراعاة مناسبة السبع ، وإيلاء بعضها بعضاً : لفات – مع ما أشرنا إليه – أمر آخر ، آكد فى المناسبة .

فإن الأولى بسورة يونس أن يؤتى بالسور الخمس التى بعدها، لما اشتركت فيه من المناسبات ، من القصص، والافتتاح بـــ (الر)، وبذكر الكتاب، ومن كونها : مكيات ، ومن تناسب – ما عدا الحجر – فى المقدار ، ومن التسمية باسم نبى ، والرعد : اسم ملك، وهو مناسب لأسماء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

فهذه عدة مناسبات للاتصال بين يونس وما بعدها، وهى آكد من هذا الوجه الواحد فى تقديم يونس بعد الأعراف.

ولبعض هذه الأمور : قدمت سورة الحجر على النحل ، مع كونها أقصر منها ، ثم يقول :

ولو أخرت براءة عن هذه السور الست: لبعدت المناسبة جداً ، لطولها بعد عدة سور أقصر منها ، بخلاف وضع سورة النحل بعد الحجر ، فإنها ليست كبراءة فى الطول .

ثم يقول السيوطى :

ويشهد لمراعاة الفواتح فى مناسبة الوضع :

ما ذكرناه : من تقديم "الحجر" على "النحل" ؛ لمناسبة (الر) قبلها .

وما تقدم : من تقديم "آل عمران" على "النساء" ، وإن كانت أقصر منها ؛ لمناسبة "البقرة" فى الافتتاح بـــ (الم) .

وتوالى : الطواسين ، والحواميم .

وتوالى : العنكبوت والروم ولقمان والسجدة ؛ لافتتاح كل بـــ (الم) ، ولهذا: قدمت "السجدة" على الأحزاب التى هى أطول منها .

هذا : ما فتح الله تعالى به على

ثم يذكر :

أن ابن مسعود رضى الله عنه قدم فى مصحفه : البقرة ، والنساء ، وآل عمران ، والأعراف ، والأنعام ، والمائدة ، ويونس .

راعى السبع الطول : فقدم الأطول منها فالأطول .

ثم ثنى "بالمئين" : فقدم براءة ، ثم النحل ، ثم هود ، ثم يوسف ، ثم الكهف.

وهكذا : الأطول فالأطول .

وجعل الأنفال : بعد النور .

ووجه المناسبة فى ذلك: أن كلا من – النور والأنفال – مدنية ، ومشتملة على أحكام ، وأن فى النور وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض .. الآية ، وفى الأنفال واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض ٠٠ الآية ، ولا يخفى ما بين الآيتين من المناسبة ، فإن الأولى مشتملة على الوعد بما حصل ، وذكر به فى الثانية .

ثم يختم الإمام السيوطى كلامه بقوله: فتأمل .

هذا .. ويبدو – جلياً –أن استدلالات السيوطى هى استنتاجات مبنية على الرواية التى استدل بها الإمام البيهقى .

وبذلك : فهذه الرواية هى الحجة والعمدة التى اعتمد عليها أصحاب القول بأن ترتيب سورة الأنفال ليس توقيفياً ، بل هو اجتهاد من الصحابة ، كما تفيده هذه الرواية .

ولننظر الآن إلى أصحاب القول بأن ترتيب السور توقيفى وموقفهم من هذه الأدلة .

أولاً : بالنسبة للرواية التى استدل بها الإمام البيهقى لما ذهب إليه ، وبنى عليها السيوطى – ما توصل إليه .

يقول صاحب تفسير المنار(٩) .

هذا الحديث ..قال عنه "الترمذى": حسن لا نعرفه إلا من حديث عوف بن أبى جميلة عن يزيد الفارسى عن ابن عباس .

ويزيد الفارسى هذا – كما فى تهذيب التهذيب – غير مشهور ، اختلفوا فيه ، هل هو يزيد بن هرمز ، أو غيره ؟

والصحيح أنه غيره .

روى عن ابن عباس ، وحكى عن عبد الله بن زياد وكان كاتبه ، وعن الحجاج بن يوسف فى أمر المصاحف .

وسئل عنه يحيى بن معين : فلم يعرفه .

وقال أبو حاتم : لا بأس به .

يقول رشيد رضا : فمثل هذا الرجل لا يصح أن تكون روايته التى انفرد بها ، مما يؤخذ به فى ترتيب القرآن المتواتر .

ثم يقول : ومما يرد به على هذا القول كذلك .. أنه لا يعقل أن يرتب النبى صلى الله عليه وسلم جميع السور ، إلا الأنفال وبراءة .

وقد صح أنه صلى الله عليه وسلم ، كان يتلوا القرآن كله فى رمضان على جبريل عليه السلام ، مرة واحدة من كل عام ، فلما كان العام الذى توفى فيه –صلى الله عليه وسلم – عارضه القرآن مرتين .

فأين كان يضع – صلى الله عليه وسلم – هاتين السورتين فى قراءته .. ؟

التحقيق : أن وضعهما فى موضعهما توقيفى ، وإن فات عثمان ، أو نسيه .. على فرض صحة هذه الرواية .

ولولا ذلك أى – أنه توقيفى – لعارضه الجمهور ، أو ناقشوه فيه ، عند كتابة القرآن ، كما روى عن ابن عباس – على فرض صحة الرواية – بعد سنين من جمعه ونشره فى الأقطار .

ثانياً : بالنسبة لاستنتاجات السيوطى واستدلالاته :

يقول الإمام الآلوسى فى تفسيره(١١) : ما ذكره السيوطى من عدم التوقيف فى هذا الوضع : فى غاية البعد .

ثم يقول :

١ –سؤال الحَبر ، وجواب عثمان : ليسا نصاً فى ذلك (١٢).

٢–ما ذكره عليه الرحمة – فى أول الأمور التى فتح الله بها عليه : غير ملائم بظاهره ظاهر سؤال الحبر رضى الله تعالى عنه ؛ حيث أفاد أن إسقاط البسملة من براءة اجتهادى أيضاً.

والذى يستفاد مما ذكره السيوطى خلافه .

٣–أن ما ادّعاه بأن وضع براءة فى مكانها لمناسبة الطول .. كلام لا يصح أن يقال إلا إذا لم انعدمت المناسبة بين هذه السور وما قبلها .

والمناسبة موجودة ، بل كثيرة وواضحة جداً .

كما أنه كان يغنى السيوطى عما ذكر : ما علل به عثمان رضى الله عنه ، حسب ما أخرج النحاس فى ناسخه عن عثمان أنه قال : كانت الأنفال وبراءة يدعيان فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. "القرينتين" ؛ فلذلك جلعتهما فى السبع الطول .

٤– ما ادعاه : من أن يونس سابعة السبع الطول ، ليس أمراً مجمعاً عليه ، بل هو قول مجاهد ، وابن جبير ، ورواية عن ابن عباس .

وفى رواية عند الحاكم : أنها الكهف .

وذهب جماعة – كما قال فى اتقانه – إلى أن السبع الطول : أولها البقرة ، وآخرها : براءة ..

واقتصر ابن الأثير فى النهاية : على هذا .

وعن بعضهم : أن السابعة "الأنفال وبراءة" بناء" على القول بأنها سورة واحدة .. وقد ذكر ذلك الفيروزابادى فى قاموسه.

٥– وأما ما ذكره من مراعاة الفواتح فى المناسبة : فأمر غير مُطَّرد ؛ فإن الجن ، والكافرون ، والإخلاص : مفتتحات بـــ(قل) مع الفصل بعدة سوره بين الأولى والثانية ، والفصل بسورتين : بين الثانية والثالثة .

ثم يقول:

وبعد هذا كله : لا يخلو ما ذكره عن نظر – كما لا يخفى – على التأمل ، فتأمل(١١) .

وبهذا الشكل .. !! .

وبعد هذا العرض .. !! .

يتضح أن القول بأن هذا الترتيب اجتهادى من الصحابة: أدلته ضعيفة ، ولا تنهض فى معارضة الثابت المشهور من توقيفية هذا الترتيب .

رابعاً : سبب نزول السورة

فى القرطبى (١٤): روى عبادة بن الصامت قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر ، فلقوا العدو . فلما هزمهم الله ..!!

اتبعتهم طائفة من المسلمين يقتلونهم .

واحدقت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم .

واستولت طائفة على العسكر والنهب .

فلما نفى الله العدو ورجع الذين طلبوهم ، قالوا : لنا النفل ، نحن الذين طلبنا العدو ، وبنا نفاهم الله ، وهزمهم .

وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنتم بأحق منا ، بل هو لنا ، نحن .. برسول الله صلى الله عليه وسلم ، لئلا ينال العدو منا غِرَّة.

وقال الذين استولوا على العسكر والنهب: ما أنتم بأحق منا ، هو لنا ، نحن حويناه ، واستولينا عليه .

فأنزل الله عز وجل يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين.
فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا بينهم.

خامساً : مكية السورة و مدنيتها

واضح أن السورة مدنية : حيث إنها نزلت بعد غزوة بدر.

سادساً : فضل السورة

يشير إلى هذا الفضل ما كان يفعله صلى الله عليه وسلم .
حيث أخرج الطبرانى أنه كان يقرأ بها فى صلاة المغرب وذلك: بسند صحيح عن أبى أيوب .
وأخرج – أيضاً – عن زيد بن ثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم" انه كان يقرأ فى الركعتين من المغرب بسورة الأنفال "(١٥).

سابعاً : صلة السورة بما قبلها

هناك مناسبتان عامة وخاصة .
أ- فمناسبتها العامة لسورة الأعراف(١٦) .
أن سورة الأعراف : كانت لبيان أحوال أشهر الرسل الكرام مع أقوامهم.
أما هذه: فجاءت لبيان حال خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم مع قومه .
ب- أما مناسبتها الخاصة : فمنها :
١) أنه إذا كان فى الأعراف قوله تعالىلآ وأمر بالعرف {[الآية ١٩٩]. أى : المعروف .
ففى هذه : كثير من صور هذا المعروف المأمور به ، من مثل قوله تعالى (فاتقوا الله) (وأصلحوا ذات بينكم) (وأطيعوا الله ورسوله) .. إلخ [الآية ١] .
٢) إذا كان فى الأعراف : قد فصل سبحانه وتعالى فيما ذكر من القصص .. آل فرعون وأضرابهم وما حل بهم ،، !! .
فقد أجمل فى الأنفال ذلك : بقوله تعالى{ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوى شديد العقاب }
[الأنفال ٥٢] .
٣) إذا كان تعالى فى الأعراف : أشار إلى سوء زعم الكفرة فى القرآن بقوله تعالى وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها [الأعراف ٢٠٣].
فقد صرح سبحانه وتعالى فى الأنفال: بقوله{ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين }[الآية ٣١] .
٤) إذا كان فى الأعراف : قد أمر بالاستماع والإنصات إلى القرآن الكريم إذا قرئ فى قوله وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا...!! .

فقد نهى فى الأنفال: عن التولى عنه حال الاستماع إليه فى قوله تعالى{ يا آيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون }[الأنفال ٢٠] .

٥) إذا كان تعالى فى الأعراف : قد مثل الكافرين بالكلب فى قوله تعالى{ فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا } [الآية ١٧٦] .

فقد جعله شر الدواب فى الأنفال: بقوله{ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون }
[الآية ٢٢] .

وبقوله : إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون
[الآية ٥٥] .

٦) إذا كان تعالى أشار فى الأعراف : إلى إصرار الشيطان على إغواء بنى الإنسان فى قوله{ قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم }[الآية ١٦] .

فقد بين فى الأنفال : صوراً من إغوائه فى قوله تعالى :{ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برئ منكم إنى أرى ما لا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب }[الآية ٤٨] .

٧) لما قال تعالى فى الأعراف :{ وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب }[الآية ١٦٧] .

أمر فى سورة الأنفال : بامتلاك المؤمنين للوسائل التى تحقق ذلك فى قوله تعالى{ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم }[الآية ٦٠] .

٨) إذا كان عز وجل : قد بين – فى الأعراف – أن القرآن هدى ورحمة لقوم يؤمنون ، وذلك بقوله{ قل إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ..} !! [الأعراف ٢٠٣] .

وأردف سبحانه ذلك : بالأمر بالاستماع له{ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا .. }!!
[الأعراف ٢٠٤] .

فقد بين جل وعلا فى هذه السورة : حال المؤمنين عند تلاوته ، وحالهم إذا ذكر الله تبارك وتعالى ، بقوله سبحانه{ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليه آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون } [الأنفال ٢] .

إلى غير ذلك من المناسبات(١١) .

ثامناً : هدف السورة

١) إبراز جانب العقيدة ، وهيمنتها على كل أمور المسلمين.

أ- ففى مسألة الأنفال : – كما يقول سيد قطب – يردون إلى تقوى الله يسأونك عن الأنفال .. [الآية ١] .

ب- وفى خطة المعركة : يردون إلى قدر الله وتدبيره ، وتصريفه لمراحلها جميعاً إذا أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولاً [الآية ٤٢].

جـ- فى أحداث المعركة ونتائجها(١٧): يردون إلى قيادة الله لها ، ومدده وعونه فيها فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاءً حسناً [الآية ١٧] .

د- وفى تحديد الهدف من وراء المعركة : يقرر { وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله }[الآية ٣٩] .

و- وفى تنظيم العلاقات فى المجتمع المسلم ، وبينه وبين غيره من المجتمعات الأخرى : تبرز العقيدة قاعدة للتجمع والتمييز ، وتجعل القيم العقيدية هى التى تُقدِّم فى الصف أو تُؤَخِّر إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شئ حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير * والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير * والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم * والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله إن الله بكل شئ عليم [الآيات ٧٢-٧٥] .

٢) إبراز خط الجهاد ، وبيان قيمته الإيمانية والحركية ، وتجريده من كل شائبة شخصية ، وإعطاؤه مبرراته الذاتية العليا التى ينطلق بها المجاهدون فى ثقة وطمأنينة واستعلاء إلى آخر الزمان .

فى مثل قوله تعالى{ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ..}[الآية ١٥] .

وفى مثل قوله تعالى{ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيـــل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم }[الآية ٦٠] .

وفى مثل قوله تعالى{ يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ... } [الآية ٦٥] .

٣) تنظيم الجماعة المسلمة على أساس العقيدة ، وبيان الأحكام التى تتعامل بها مع غيرها من الجماعات الأخرى فى الحرب والسلم ، وأحكام الغنائم والمعاهدات.

مع وضع الخطوط الأصيلة فى تنظيم تلك الروابط وهذه الأحكام .

فى مثل قوله تعالى{ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم .. }[الآية ٢٤] .

وفى مثل{ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم } [الآية ٢٧] .

وفى مثل{ يا آيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون }[الآية ٢٠] .

وفى مثل يا آيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ... [الآية ٤٥] .

٤) تربية الجماعة المسلمة وإعدادها لقيادة البشرية .

فى مثل قوله تعالى { إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم } [الآيات ٢-٤] .

وفى مثل قوله تعالى{ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين الدين كله لله }[الآية ٣٩] .

وفى مثل قوله تعالى{ إن الله لا يحب الخائنين * ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون * وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ...} الآيات [٥٨-٦٠].

تاسعاً : تقسيم آيات السورة موضوعيا

والسورة تتكون من قسمين اثنين(٧)
القسم الأول : يتكون من مقدمة ، وفقرتين .
والقسم الثانى : يتكون من فقرتين ، وخاتمة .
ففى القسم الأول :
تأتى مقدمة السورة .. وهى عبارة عن أربع آيات .
من الآية الأولى ، حتى نهاية الآية (٤) .
وفيها الحديث عن : أن المرجع فى الغنائم وتقسيمها هو الله سبحانه ، وتحديد صفات المؤمنين الحقيقيين .
ثم الفقرة الأولى : وهى عبارة عن (١٠) آيات .
من الآية (٥) حتى نهاية الآية (١٤) .
وفيها : يعرض المولى سبحانه وتعالى صفحة من غزوة بدر .
ثم الفقرة الثانية : وهى عبارة عن (١٥) آية .
من الآية (١٥) حتى نهاية الآية (٢٩) .
وفيها : خمسة نداءات لأهل الإيمان (يا أيها الذين آمنوا) يضع المولى من خلالها دستور الحركة الجهادية المفروضة على المسلمين ، ودستور النجاح فى هذه المعركة .
وفيها كذلك : تحديد الأساسيات التى تحتاجها إقامة فريضة الجهاد ، من الثبات فى المعركة ، والطاعة، والاستجابة المباشرة للأمر ، والحذر من الخيانة ، والتقوى .

وفى القسم الثانى :
تأتى الفقرة الأولى .. وهى عبارة عن (١٥) آية .
من الآية (٣٠) حتى نهاية الآية (٤٤) .
وفيها الحديث عن : موضوع الصراع مع الكفر وأهله ، والقتال وضرورته، وأسبابه ، ومبرراته ، وآثاره ، وفضل الله على المؤمنين فيه .
ثم الفقرة الثانية .. وهى عبارة عن (٢٧) آية .
من الآية (٤٥) حتى نهاية الآية (٧١) .
وفيها : الحديث عن القتال وآثاره ، ومستلزماته ، وبيان الأحوال التى يمكن أن تمر على الأمة المسلمة .
وهى تحتوى على أربعة نداءات بصيغة يا أيها الذين آمنوا وثلاثة نداءات بصيغة يا أيها النبى ..
فهى إذا : فقرة تتوجه بالنداء إلى الجند ، وإلى القيادة ، ليعرف كل منها واجبه فى تحقيق فريضة القتال .
وأخيراً : تكون الخاتمة ..
وهى عبارة :
أربع آيات
من الآية (٧٢) حتى نهاية السورة بالآية (٧٥) .
وفيها : الوصف الكامل لحقيقة الإيمان .

عاشراً : أبرز موضوعات السورة

١) التعرض لأحكام الغنائم .. ببيان تحليلها للنبى صلى الله عليه وسلم بعد أن كانت محرمة على من كان قبله ، بقوله صلى الله عليه وسلم أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى :

نصرت بالرعب مسيرة شهر .

وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة ، فليصل .

وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى .

وأعطيت الشفاعة .

وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة (١٧) .

وذلك فى قوله تعالى يسألونك عن الأنفال.. [الآية ١] .

ثم قوله تعالى واعلموا أنما غنمتم من شئ فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله ...
[الآية ٤١] .

٢) بيان صفات المؤمنين :

وذلك فى قوله تعالى{ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقاً }
[الآيات ٢-٤] .

٣) الحديث المستفيض عن غزوة بدر .

يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان

مؤكدا فيه أن :

هذه الغزوة بملابساتها ، وبما ترتب عليها فى تاريخ الحركة الإسلامية ، بل فى التاريخ البشرى كله : تقوم معلماً ضخماً فى طريق تلك الحركة ، وفى طريق هذا التاريخ (١٨) .

٤) التهوين من شأن الكافرين ، وقوتهم .

فى مثل قوله تعالى{ إذ يريكهم الله فى منامك قليلاً ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم }[الآية ٤٣] .

وفى مثله قوله تعالى ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون
[الآية ٥٩] .

وفى مثل قوله تعالى{ ذلكم وأن الله مؤهن كيد الكافرين }[الآية ١٨].

٥) الأمر بامتلاك القوة التى تصل حد الإرهاب لأعداء الله تعالى وأعداء المسلمين .

فى مثل قوله تعالى{ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط
الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم }[الآية ٦٠] .

٦) بيان حكم الأسرى :

فى مثل قوله تعالى{ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض... }[الآيات ٦٧-٧٠] .

٧) تخصيص الأقارب وذوى الأرحام بالميراث .
فى قوله تعالى وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض ...
إلى آخر السورة .

حادى عشر : بعض الدروس المستفادة

١) أن النصر من عند الله تعالى وحده .
قال تعالى{ وما النصر إلا من عند الله }[الآية ١٠٢] .

٢) عدم إقرار المنكر بين أفراد المجتمع ، حتى لا يعمهم العذاب(١٤) .
قال تعالى{ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة }[الآية ٢٥] .

٣) التنازع والخلاف : طريق الفشل والضعف .
قال تعالى{ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين }[الآية ٤٦] .

٤) السلام مع العدو ، لا يكون سلاماً حقيقياً ، ولا جائزاً شرعاً ، إلا لمن امتلك القوة ، وأجاد استعمالها ، وأرهب الأعداء بها .
إذ أن الله تعالى لم يقل{ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها } [الآية ٦١] .
إلا بعد أن أمرنا بامتلاك كل أنواع القوى ، وفى أفضل صورها وأوضاعها فى السلم والحرب .. فى قوله { وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم }[الآية ٦٠] .

٥) أن إنفاق الأموال من أعداء الإسلام : لا يهدفون من ورائه إلا لتدمير الإسلام وإبادة أهله .. ظهر هذا الهدف بوضوح ، أو خفى إلا على الواعين الفاهمين الراصدين حركة أعداء الإسلام وأهله .
يستوى فى ذلك :
سيول القروض الربوية ، أو المنح الإذلالية .
وكذلك : الهبات السخية لتحديد نسل المسلمين .
أو الإنفاقات الهائلة لاستمرار التفوق عليهم فى جميع ميادين الحرب والسلم .
أو الإنفاق على البحوث العملية التى تمكن من ثقب الأوزون كما يقترح باحث يهودى – فوق الدول العربية تحجيماً لأعداد سكانها(١٩) .
ودليل على ذلك : فى قوله تعالى{ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون }[الآية ٣٦] .

ثانى عشر : مصادر المفاتيح و هوامش البحث

١- أنظر : السخاوى .. جمال القراء ٣٦/١ .
الفيرزابادى .. بصائر ذوى التمييز ٢٢٢/١.
البقاعى .. نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور (سورة الأنفال).
السيوطى .. الاتقان (النوع ١٧) .
٢- القاسميى .. محاسن التأويل (تفسير الأنفال).
٣- أنظر : الفيروزابادى .. بصائر ذوى التمييز ٢٢٢/١
السيوطى .. الاتقان (النوع ١٧) .
٤- أنظر : الفيروزابادى .. بصائر ذوى التمييز ٢٢٢/١.
السيوطى .. الاتقان (النوع ١٧) .
السيوطى .. الدرر المنثور ٣/٩.
الآلوسى .. روح المعانى (تفسير الأنفال).
الشوكانى .. فتح القدير (تفسير الأنفال) .
السيوطى .. الدرر المنثور ٣/٩ .
الآلوسى .. روح المعانى (تفسير الأنفال).
الشوكانى .. فتح القدير (تفسير الأنفال).
٥- البقاعى .. نظم الدرر (سورة الأنفال).
٦- السخاوى .. جمال القراء ٣٦/١.
٧- سعيد حوى .. الأساس فى التفسير (تفسير الأنفال).
٨- أنظر : مكى بن أبى طالب .. التبصرة ص ٢١١.
السخاوى .. جمال القراء ٣٦/١.
الآلوسى.. روح المعانى (تفسير الأنفال).
النيسابورى .. غرائب القرآن (تفسير الأنفال).
٩- رشيد رضا .. تفسير المنار (تفسير الأنفال).
١٠- رواه : أبو داود .. كتاب الصلاة ، باب : من جهر بها – أى : بسم الله الرحمن الرحيم .
الترمذى .. أبواب : تفسير القرآن ، باب : ومن سورة التوبة.
المستدرك .. كتاب : التفسير ، باب : تفسير سورة التوبة .
١١- الآلوسى .. روح المعانى (تفسير الأنفال).
١٢- أى : فى عدم التوقيف .
١٣- تراجع الصلة بين الأنفال والأعراف ، وكذلك بين التوبة والأنفال .
١٤- القرطبى .. الجامع لأحكام القرآن (تفسير الأنفال).
١٥- أنظر : الشوكانى .. فتح القدير (تفسير الأنفال).
١٦- أنظر: رشيد رضا .. تفسير المنار (تفسير الأنفال).
الآلوسى .. روح المعانى (تفسير الأنفال).
١٧- رواه : البخارى .. كتاب التيمم ، باب "فلم تجدوا ماءً" .

١٨- سيد قطب .. فى ظلال القرآن (تفسير الأنفال).
١٩- القبس عدد ٢٣/٣/١٩٨٩م.

فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

مفاتيح سورة التوبة

أولاً:اسم السورة

لهذه السورة : الكريمة أسماء عديدة .

فهى تسمى(١) :

١) التوبة .

لكثرة ذكر مادة "التوبة" فى آياتها حيث ذكرت سبع عشرة مرة فيها(٢) .

لقوله تعالى فيها : {لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم} (٣) [الآيتان ١١٧ ، ١١٨] .

٢) براءة .

وذلك : لأن فى أولها نبذ عهود الكفار ، بقوله تعالى : {براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتهم من المشركين} .

٣)الفاضحة .

لأنها: فضحت أسرار المنافقين وكشفت عنهم .

قال ابن عباس : ما زالت تنزل (ومنهم) (ومنهم) حتى ظننا أنه لا يبقى أحد منا إلا ذكر فيها(٣) .

إشارة إلى مثل :

قوله تعالى : { ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى .. }

وقوله تعالى : {ومنهم من يلمزك فى الصدقات ..}

وقوله تعالى : {ومنهم الذين يؤذون النبى .. }

٤) المقشقة .

أى الجامعة ؛ لأنها جمعت أوصاف المنافقين ، وكشفت أسرار الدين(٤) ، كما أنها : تبرئ المؤمن ، وتنظفه من النفاق .. قاله ابن عمر (٢).

وقيل : أى المبرئة ، ونقل ذلك عن ابن عمر ، ولعله أراد المبرئة عن النفاق(٥) .

٥) المبعثرة .

لأنها كشفت عن أسرار الناس(٥) ، وبعثرة أسرار المنافقين(٦) .

٦) الحافرة .

وذلك : لأنها تحفر قلوب أهل النفاق ، بمثل قوله تعالى : { إلا أن تقطع قلوبهم} [الآية ١١٠] وقوله تعالى { فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم} [الآية ٧٧] .

٧) سورة العذاب.

وذلك(٦) لما فيها من انعقاد الكفار بالعذاب مرة بعد أخرى {سنعذبهم مرتين} [الآية ١٠١] .

٨) البَحُوث .

وذلك: لما تضمنت من ذكر المنافقين ، والبحث عن أسرارهم(٤).

وكذلك : لها من الأسماء (٧):
٩) المُنَكِّلَة .
١٠) المُدمدِمة .
١١) المُخزية .
١٢) المُشَرِّدَة .
كل ذلك : لأنها – بما فيها من المنافقين – تنكل بهم ، وتدمدم عليهم ، وتخزيهم ، وتشردهم .
وكذلك : لها من الأسماء(٨) .
١٣) المثيرة
وذلك : لأنها أنبأت بمثالبهم ، وعوراتهم(٩) .
ويضيف الإمام البقاعى كذلك (١٠)
١٤) الحفارة .
١٥) المهلكة.
كما يضيف الإمام الزركشى(١١) .
١٦) المسوِّرة.
ويضيف الإمام السيوطى أيضاً(٩).
١٧) المُنَقِّرَة .
وذلك : لأنها نقرت عما فى قلوب المشركين(٩).

ثانيا : عدد أيات السورة و كلماتها و حروفها

آياتها :
(١٢٩) مائة وتسع وعشرون آية .
كلماتها :
(٢٤٩٧) ألفان وأربعمائة وسبع وتسعون كلمة.
حروفها :
(١٠٧٨٧) عشرة آلاف وسبعمائة وسبعة وثمانون حرفاً .

ثالثاً : ترتيب السورة فى المصحف و فى النزول

أ- فى المصحف ..
بعد سورة "الأنفال" ، وقبل سورة "يونس" .
ب- فى النزول ..
بعد سورة "المائدة" ، وقبل سورة "النصر" .

رابعاً : سبب نزول السورة

بالنسبة لسبب نزول السورة : لا نجد ما يشير إلى ذلك سوى ما يتعلق بمقدمات السورة فقط .

فقد روى " أن النبى صلى الله عليه وسلم أمَّر أبا بكر على موسم الحج ، فى العام التاسع ، فلما نزلت السورة ، أتبعه علياً ، رضى الله عنه" .

فلما كان قبل التروية : خطب أبو بكر فى الناس وحدثهم عن مناسكهم .

ولما كان يوم النحر عند العقبة : قام على ، فقال : يا أيها الناس : إنى رسول رسول الله إليكم .

فقالوا : بماذا ..؟

فقرأ عليهم ثلاثين وأربعين آية .

والمسلمون والمشركون معاً فى مواقف الحج ومعالمه .

ثم قال : أمرت بأربع : -

أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك .

وأن لا يطوف بالبيت عريان .

ولأن لا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة.

وأن يتم إلى كل ذى عهد عهده.

فقال المشركون عند ذلك :

يا على ! أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا ، وأنه ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرماح وضرب بالسيوف(١٤) .

وهذا : كما هو واضح ليس سبب نزول مباشر ، وإنما هو من جو النزول وملابساته .

خامساً : مكية السورة و مدنيتها

هذه السورة من أواخر القرآن نزولاً ، إن لم تكن آخر سورة كما ذكر البعض ، أى : أنها مدنية .

وقد نزلت بجملتها فى العام التاسع الهجرى ، ولكنها لم تنزل دفعة واحدة .

بل نزلت على مراحل ثلاث ، كما هو الراجح (١٥).

المرحلة الأولى منها : كانت قبل غزوة "تبوك" فى شهر رجب من العام التاسع.

المرحلة الثانية منها : كانت فى أثناء الاستعداد لهذه الغزوة ، ثم فى ثناياها.

المرحلة الثالثة : كانت بعد العودة منها .

أما مقدمات السورة : من أولها إلى نهاية الآية الثامنة والعشرون – وعند البعض إلى نهاية الآية الأربعون – منها .. فقد نزلت متأخرة فى نهاية العام التاسع نفسه ، قبيل موسم الحج ، فى ذى القعدة أو فى ذى الحجة .

حكاية البسملة

موضوع ترك البسملة من أول سورة التوبة من الموضوعات التى كثرت فيها الأقوال .

وسنكتفى بعرض بعضها على النحو التالى :

١) أن "براءة" سخط .

و"بسم الله الرحمن الرحيم" رحمة .

ولا يجمع بينهما.

ولذلك : سقطت (٤).

٢) أن "بسم الله الرحمن الرحيم" أمان .

و"براءة" رفع للأمان .

ولا يجمع بينهما .
ولذلك : سقطت .
ويرجح هذا القول : صاحب التفسير الواضح .
٣) قال قتادة : لما تشابهت السورتان ، واختلفت الصحابة ، هل هما سورة واحدة ، أو سورتان ٠٠ ؟
تركت بينهما فرجة : عملاً بقول من قال "إنهما سورتان" .
وتركت "البسملة" بينهما: عملاً بقول من قال "هما سورة واحدة"(١٧) ،
ورضى الفريقان ، وثبتت حجتاهما فى المصحف(١٧) .
وبعد أن ذكر صاحب روح المعانى هذا القول :
عقب عليه بقوله "والحق أنهما سورتان"(٥) .
٤) للدلالة على أن "البسملة" من القرآن .
قال صاحب التفسير الكبير : قال أصحابنا لعل الله تعالى لما علم من بعض الناس أنهم يتنازعون فى كون بسم الله الرحمن الرحيم من القرآن .. أمر بأن لا تكتب ها هنا ، تنبيهاً على كونها آية من أول كل سورة ، وأنها لما لم تكن آية من هذه السورة.
لا جرم لم تكتب .
وذلك : يدل على أنها لما كتبت فى أول سائر السور ، وجب كونها آية من كل سورة (١٨).
٥) قالوا لما سقط : أولها سقط بسم الله الرحمن الرحيم معه .
فقد روى عن ابن عجلان : أن سورة براءة كانت تعدل البقرة فذهب منها.
فلذلك : لم يكتب بينهما بسم الله الرحم الرحيم (١٨).
قال الإمام الفخر الرازى : عند الحديث عن اختلاف الصحابة – انظر القول الثالث – لما لم يتسامحوا بهذا القدر من الشبهة ، دل على أنهم كانوا مشددين فى ضبط القرآن عن التحريف ، مما يدل على بطلان هذا القول .
٦) أن ذلك من فعل الصحابة.
فقد ورد عن ابن عباس : قلنا لعثمان : ما جملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى ، وإلى براءة وهى من المئين فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتموها فى السبع الطوال .. فما حملكم على ذلك٠٠!!
قال عثمان : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل عليه الوحى يدعو ببعض من يكتب عنه ، فيقول : ضعوا هذا فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا .
وكانت الأنفال من أول ما نزل ، وبراءة من آخر ما نزل من القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها .
وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولم يبين لنا أنها منها.
فظننت أنها منها ، فمن ثَمَّ قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر "بسم الله الرحمن الرحيم" (١٩).
قال ابن العربى : وهو الأصح .
وقال القرطبى : وهو الصحيح .
بَيد أن صاحب غرائب القرآن : تعقب هذا الرأى بالإنكار عليه ، وكذلك صاحب التفسير الواضح .
فقال الأول : واستبعد جمع من العلماء هذا القول ؛ لأنا لو جوزنا فى بعض السور أن لا يكون ترتيبها من الله على سبيل الوحى ، لجوزنا مثله فى سائر السور ، وفى آيات السور الواحدة .
وذلك : يُفْضِى إلى تجويز الزيادة والنقصان فى القرآن ، وهو باطل(١٤) .
ويقول الثانى : ما روى عن ابن عباس فى هذا أظنه مدسوسه عليه .

إذ لا يعقل أن يلحق النبى بالرفيق الأعلى ، ولم يبين للصحابة مكان هذه الآيات ، فاختلف الصحابة فى ذلك .
على أن الصحيح : أن البسملة آية فذة من القرآن .. أنزلت للفصل والتبرك بها .
وأنه لا مدخل لأحد بالمرة فى إثباتها أو تركها ، وإنما هذا كله: توقيف ووحى، ولا يعقل أن يترك ذلك النبى صلى الله عليه وسلم.
ولا يصح أن يتشكك مسلم فى هذا أبداً .
ولا شك كذلك – فى عدم نزول البسملة هنا بالإجماع (١٦).

سادساً : فضل السورة

لم أعثر على آثار فى ذلك .

سابعاً : صلة السورة بما قبلها

يقول صاحب تفسير المنار : أما التناسب بينها وبين ما قبلها ، فإنه أظهر من التناسب بين سائر السور بعضها مع بعض .
إذ هى : كالمتممة لسورة الأنفال فى معظم ما فيهما من أصول الدين وفروعه ، والسنن الإلهية والتشريع(١٣) .
وهذا على وجه الإجمال .
وهناك – كذلك – مناسبات تفصيلية كثيرة .
نذكر منها ما يلى :
١) ذكر تقسيم الأنصبة فى كل منهما(٥)
فإذا كان تعالى – فى سورة الأنفال – قد قسم الغنائم وجعل خمسها لخمسة أصناف ..!!
فى قوله :{ واعلموا أنما غنتم من شئ فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله } [الآية ٤١] .
فإنه تعالى – فى سورة التوبة – فقد قسم الصدقات وجعلها لثمانية أصناف .
فى قوله: {إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ...} [الآية ٦٠] ،
٢) ذكر العهود والمواثيق فى كل منهما(٥).
فإذا كان تعالى – فى الأنفال – ذكر العهود .. مبيناً أن الذين كفروا ينقضونها فى كل مرة لأنهم لا يتقون.
بقوله :{ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون * الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون} [الآيتان ٥٥ ، ٥٦] .
فإنه تعالى – فى التوبة – ذكر العهود .. مبيناً براءته تعالى ورسوله من الذين كفروا ومن عهودهم ، التى ينقضونها فى كل مرة ، لأنهم {لا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة } ، بقوله { براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين } [الآية :١].
٣) الحديث عن إعداد العدة وامتلاك القوة فى كل منهما .
فإذا كان تعالى – فى الأنفال – أمر المؤمنين بإعداد الممكن من القوة ..!!
فى قوله : { وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة } [الآية ٦٠].

فإنه تعالى – فى التوبة – نعى على المنافقين ، وعاب عليهم .. عدم إعدادهم العدة لامتلاك القوة .
فى قوله : { إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالآخرة وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون * ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة } [الآية ٤٦].
٤) الحديث عن الموالاة وعدمها فى كل منهما(٥).
فإذا كان تعالى قد ختم الأنفال بإيجاب موالاة المؤمنين لبعضهم البعض ، وبيان : أن الذين كفروا بعضهم أولياء بعض ، وما فى ذلك : من وجوب انقطاع المؤمنين عن موالاة الكافرين ..!!
فى قوله : { إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا } {أولئك بعضهم أولياء بعض ..}
[الآية ٧٢] .
وفى قوله : { والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ..} [الآية ٧٣].
فإنه تعالى – فى التوبة – بين إيجاب موالاة المؤمنين لبعضهم البعض ، ثم بين : ما بين المنافقين من موالاة لبعضهم البعض ، ثم وجوب عدم الموالاة بين المؤمنين والكافرين .
فى قوله {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ..}
[الآية ٧١] .
وفى قوله {المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ..}
[الآية ٦٧] .
وثالثاً : فى مفتتح السورة قوله : { براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين .
ورابعاً : فى قوله : {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان } .
٥) الحديث المفصل عن قتال المشركين فى كل منهما(١٣).
فإذا كان تعالى فى الأنفال – مثلاً – قد قال :{وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله}
[الآية ٣٩] .
فإنه تعالى فى التوبة – مثلاً – قد قال : {قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين} [الآية ١٤].
٦) الحديث عن صد المشركين عن المسجد الحرام فى كل منهما ، وبيان أنهم ليسوا بأوليائه ، ولا أحق به(٦)
.
فإذا كان تعالى : قد ذكر فى الأنفال صدهم للمؤمنين عن المسجد الحرام .
فى قوله {وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون} [الآية ٣٤] ..!!
فإنه تعالى : قد ذكر فى التوبة صده تعالى عن المسجد الحرام. فى قوله : {ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون * إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة ..} [الآيتان ١٧ ، ١٨].
٧) الحديث عن الإنفاق فى سبيل الله فى كل منهما (١٣).
إذ نجد فى الأنفال .. قوله تعالى فى صفات المؤمنين {ومما رزقناهم ينفقون} .
وفى الحث على الإنفاق {وما تنقفوا من شئ فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون} [الآية ٦٠] .
كما نجد فى التوبة {إنما الصدقات للفقراء ..} .
وقوله تعالى {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها} .

٨) الحديث عن المنافقين فى كل منهما(٢).
فإذا كانت الأنفال .. قد تحدثت عنهم فى آية واحدة ، هى قوله تعالى { إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم} [الآية ٤٩].
فإن سورة التوبة .. قد تحدثت عنهم بتفصيل وتوسعة ما بعدهما تفصيل وتوسعة ، حتى كانت – كما يقول : صاحب المنار – أجدر بأن تسمى "المنافقون من سورة "المنافقين" – من جزء "قد سمع" – لو كانت تسمية السور بالرأى والاجتهاد (١٣) .
٩) الحديث عن غلبة هذا الدين ، وظهور أمره على الدنيا كلها.
ففى الأنفال : الأمر بقتال الطغاة من مستعبدى البشر ، لتحقيق هذه الغاية ، بقوله تعالى {وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله} [الآية ٣٩].
وفى التوبة : ما يفيد أن الله تعالى قد تكفل بتحقيق هذه الغاية ، وأن ذلك واقع لا محالة ، بقوله تعالى {هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون} [الآية ٣٣] .

ثامناً : هدف السورة

نحاول – بعون الله تعالى – أن نجمل أهداف السورة فى نقاط ثلاث.
وهى:
الأول : توضيح العلاقات بين المسلمين وسائر سكان المعمورة قاطبة .
الثانى: تصنيف المجتمع المسلم نفسه ، وتحديد قيمه ومقوماته ، وأوضاع كل طبقة من طبقاته وفئة من فئاته ، عن طريق وصف المجتمع بجملته أولاً ، ثم بيان واقع كل طائفة فيه تفصيلا .
الثالث : بيان طبيعة المنهج العملى لحركة الإسلام ، ومراحل الدعوة إليه ، وخطواتها .
وهذا البيان : يتضح بجلاء إذا ما قورنت أحكام هذه السورة ، النهائية ، مع الأحكام المرحلية ، المتقدمة عليها فى السور السابقة.
هذا هو مجمل الأهداف .
وإلى تفصيلها لزيادة التوضيح ، فيما يلى :
الهدف الأول : ويتمثل فى النقاط التالية :
١- المواجهة مع المشركين لإزالة طواغيت الشرك .
فى مثل براءة من الله ورسوله [الآية ١] .
وفى مثل قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم [الآية ١٤] .
وفى مثل {يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا } [الآية ٢٨] .
٢- إبطال مزاعم أهل الكتاب وكشف زيفها ، إنقاذاً لذراريهم من أكاذيبهم.
فى مثل { وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح بن الله } [الآيات ٣٠-٣٥] .
٣- فضح أسرار المنافقين ، وبيان طبيعتهم ، وحكم معاملتهم.
فى مثل { ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ..} [الآية ٥٦] .
وفى مثل {يحلفون بالله ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه } [الآية ٦٢] .
وفى مثل {يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر ..} [الآية ٧٤] .
وفى مثل { يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم } [الآية ٧٣] .

٤- موالاتهم المسلمين لبعضهم البعض .
فى مثل { والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض }[الآية ٧١] .

الهدف الثانى : ويتضح فيما يلى :
ولأن السورة نزلت فى العام التاسع ، وهو المشهور بعام الوفود ، وهو الذى دخلت فيه فى الإسلام أعداد كبيرة .
وقد كان المسلمون وقتها على النحو التالى تقريباً .
١- السابقون الأولون .
{فى مثل الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم .. } [الآية ٢٠] .
وهؤلاء أعظم درجة .
وكذلك { يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم * خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم } [الآية ٢٢] .
٢- المتثاقلون .
فى مثل { يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ..} [الآية ٣٨].
٣- المرتابون المترددون المنافقون .
فى مثل { إنما يستأذنكم الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون } [الآية ٤٥] .
وفى مثل يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبؤهم بما فى قلوبهم {قل استهزءوا إن الله مخرج ما تحذرون } [الآية ٦٤] .

الهدف الثالث :
وكان الإسلام يواجه الواقع البشرى كله بما يناسب وضعه ، ويكافئ حاله – وما يزال – على النحو التالى:
١- فهو يواجهه بالدعوة والبيان ؛ لتصحيح المعتقدات والتصورات أولاً .
٢- ثم يواجهه بالقوة والجهاد ؛ لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها ، والطواغيت المستبدة بها .
وذلك : لإخراج الناس فى ربوع الدنيا كلها من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد .
ويتضح ذلك بالمقارنة بين هذه النصوص .
أولاً : { ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسن.. } [النحل ١٢٥] .
{ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمة ..} [الأنعام ١٧١] .
ثم {وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله } [الأنفال ٦١] .
وقوله تعالى :{لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم.. }[الممتحنة ٨].
ثانياً : {فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ..} [التوبة ٥] .

تاسعاً : تقسيم آيات السورة موضوعيا

وهذه السورة تتكون من ثلاثة أقسام(٢٠).

القسم الأول : وهو عبارة عن (٣٧) آية .
من الآية الأولى حتى نهاية الآية (٣٧).
وفيه : الأمر بالبراءة من المشركين ، وتحريم إعطاء الولاء للكافرين، والأمر بقتال المشركين جميعاً ، وكذلك الأمر بقتال أهل الكتاب .
وهذه هى المقدمات الكبرى التى ترتكز عليها انطلاقه الجهاد .

القسم الثانى : وهو عبارة عن (٨٥) آية.
من الآية (٣٨) حتى نهاية الآية (١٢٢) .
وفيه : الحديث عن النفير للقتال وما يتعلق به .

وأما القسم الثالث والأخير : فهو عبارة عن (٧) آيات.
من الآية (١٢٣) حتى نهاية الآية (١٢٩) وهى خاتمة آيات السورة .
وفيه : الحديث عن تحديد أولويات القتال .

عاشراً : أبرز موضوعات السورة

١) تحديد العلاقة النهائية بين المعسكر الإسلامى ومشركى الجزيرة .. بصفة عامة (١٤).
فى مثل قوله تعالى : {براءة من الله ورسوله } [الآية ١] .
وفى مثل قوله تعالى { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الإيمان} [الآية ٢٣].
وفى مثل قوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا .. } [الآية ٢٨] .

٢)تحديد العلاقة النهائية بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب.
فى مثل {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الأخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يؤمنوا دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون} [الآية ٢٩] .
وفى مثل : { يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله } [الآية ٣٤].

٣)الحديث عن المتثاقلين عن الجهاد .. من المسلمين وغيرهم .
فى مثل : {يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل} [الآية ٣٨] .

٤) فضح المنافقين .. فى أحاديث طويلة عنهم ، مع بيان مواقفهم قبل غزوة تبوك ، وخلالها ، وبعدها .
فى مثل : { لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمحون } [الآية ٥٧] .

٥) طبيعة البيعة الإسلامية .. مع الله على الجهاد وفى سبيله .
فى مثل قوله تعالى : { إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله }
[الآية ١١١] .

٦) بيان أن النصر من عند الله وليس بكثرة العدد أو العتاد.
فى مثل : {لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة . ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ..} [الآية ٢٥] .

٧) الكشف عن هدف أعداء المسلمين.
فى مثل قوله تعالى { يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون } [الآية ٣٢] .

٨)تفصيل مصارف الزكاة الشرعية .
فى قوله تعالى {إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم} [الآية ٦٠] .

٩) الأصول الثلاثة .. فى حرية الدين ، ومعاملة المنافقين(١٣).
وهى :
١- أن حرية الاعتقاد والوجدان .. مرعية لا سيطرة عليها للرؤساء الحاكمين ، ولا للمعلمين والمرشدين.
فليس لأحد : أن يتهم إنساناً بإضمار الكفر ولا بنية الخيانة لملته أو دولته ، ولا بإرادة السوء لقومه وأمته ، ولا أن يعاقبه على ذلك بعقاب بدنى ولا مالى ، ولا بحرمانه من الحقوق التى يتمتع بها غيره من أفراد الأمة .
٢- أنه ليس لمن يضمر الكفر بالله أو بما جاءت به رسله .. أن يكون فتنة للناس بإظهار ذلك لهم ودعوتهم إليه ، أو الطعن فى عقائدهم ، أو إظهار ما ينافيها من قول أو عمل ، وإن لم يكن دعوة ولا طعناً .
فإن فعل ذلك وكان يدعى الإسلام : يحكم بارتداده وخروجه من الملة .. إن كان ما أظهره من الكفر صريحاً قطعياً مجمعاً عليه لا يحتمل التأويل.
ويترتب عليه ما هو مقرر فى الشرع : من استتابته ، وعقابه إن لم يتب (ومنه منع التوارث بينه وبين المسلمين وفسخ نكاحه بالمسلمات. وعدم تشييع جنازته والصلاة عليه ودفنه فى مقابر المسلمين) .
لأن حرية كل أحد فى اعتقاده = تقف عند حد حرية غيره .
ولا سيما احترام عقائد الملة التى يعيش فى ظل شريعتها ، وسائر شعائرها وعبادتها .
٣- أن من ظهر منه شئ من أمارات النفاق العملى فى الدين ، أو الخيانة للأمة والملة بما هو غير صريح ، مما لا يعاقب عليه فى الشرع بحد ولا تعزيز : فلولى الأمر أن يعظه بالتعريض ، ثم بالتصريح والتكشيف ، وله أن يعاقبه بما يرجى أن يزعه عن غيه من التأديب ، كالحرمان من مظاهر التشريف ، أو الإزورار والتقطيب ،

أو التأنيب والتعنيف ، كما كان من حرمان النبى صلى الله عليه وسلم للذين تخلفوا عن غزوة تبوك من الخروج معه إلى غزوة أخرى بقول الله تعالى : {فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبداً ..} [٩ : ٨٣] الآية.

ولكن الملوك المستبدين : يقربون إليهم المنافقين فيزيدونهم فساداً ، ويجرئون غيرهم ، بل يرغبونه فى النفاق وخيانة الأمة جهاراً : حتى إن المناصب الدينية المحضة صارت تنال بالنفاق ، ويذاد عنها أهل الصدق والإخلاص .

وإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم (١٤).

حادى عشر : بعض الدروس المستفادة

١- ذكر ابن القيّم خلاصة بديعة فى سياق ترتيب هديه صلى الله عليه وسلم مع الكفار والمنافقين ، من حيث بُعثَ ، إلى حين لقى الله عز وجل ؛ مما يؤيد فهم ما تشير إليه هذا السورة ، قال رحمه الله(٢١) :

أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى : أن يقرأ باسم ربه الذى خلق .. وذلك أول نبوته ، فأمره أن يقرأ فى نفسه ، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ .

ثم أنزل عليه {يأيها المُدَّثِّر قم فأنذر} فنبأه بقوله {اقرأ} وأرسله بـ {يأيها المُدَّثِّر}.

ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين.

ثم أنذر قومه .

ثم أنذر من حولهم من العرب .

ثم أنذر العرب قاطبة .

ثم أنذر العالمين .

فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ، ويؤمر بالكف والصبر والصفح .

ثم أذن له فى الهجرة .

وأذن له فى القتال .. ثم أمره أن يقاتل من قاتله ، ويكفّ عمن لم يقاتله.

ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله.

أ- ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام :

أهل صلح وهدنة ، وأهل حرب ، وأهل ذمة .

فأمر أن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم ، وأن يوفى لهم به ما استقاموا على العهد ، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ، ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد .

وأمر أن يقاتل من نقض عهده .

ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها ..!! فأمره فيها أن يقاتل عدّوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، أو يدخلوا فى الإسلام .

وأمره فيها .. بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم ، فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان .

وأمره فيها .. بالبراءة من عهود الكفار ، ونبذ عهودهم إليهم ، وجعل أهل العهد فى ذلك ثلاثة أقسام :

قسماً.. أمره بقتالهم ، وهم الذين نقضوا عهده ، ولم يستقيموا له. فحاربهم وظهر عليهم .

قسماً .. لهم عهد موقت لم ينقضوه ، ولم يظاهروا عليه .

فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم .

وقسماً .. لم يكن لهم عهد ، ولم يحاربوه ، أو كان لهم عهد مطلق.
فأمره أن يؤجلهم أربعة أشهر .
ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم . فقتل الناقض لعهده ، وأجّل من لا عهد له أو له عهد مطلق ، أربعة أشهر ، وأمره أن يتم للموفى بعهده إلى مدته .
فأسلم هؤلاء كلهم ، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم .
وضرب على أهل الذمة الجزية .
فاستقرّ أمر الكفار معه بعد نزول {براءة} على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة .
ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام .
فصاروا معه قسمين : محاربين ، وأهل ذمة .
والمحاربون له خائفون منه .
فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام :
مسلم مؤمن به ، ومسالم له آمن ، وخائف محارب .
ب – وأما سيرته فى المنافقين : فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ، ويَكِلَ سرائرهم إلى الله ، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة ، وأمر أن يعرض عنهم ، ويغلظ عليهم ، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ، ونهى أن يصلّى عليهم وأن يقوم على قبورهم، وأخبره أنه إن استغفر لهم أو لم يستغفر لهم ، فلن يغفر الله لهم .
فهذه سيرته فى أعدائه من الكفار والمنافقين . انتهى .

٢– فى قوله تعالى
{يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان..}
[الآيتان ٢٣ ، ٢٤].
قال بعضهم : ثمرة الآيتين تحريم موالاة الكفار ، ولو كانوا أقرباء ، وأنها كبيرة لوصف متوليهم بالظلم ، ووجوب الجهاد ، وإيثاره على كل هذه المشتهيات المعدودة طاعة لله وروسوله .
وقال الرازىّ : الآية الثانية تدل على أنه إذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين ، وبين جميع مهمات الدنيا .. وجب على المسلم ترجيح الدين على الدنيا .
كما أنه فى هذه الآية : وعيد وتشديد ، لأن كل أحد قلما يخلص منها ، فإذا قيل إنها أشد آية نعت على الناس ، كما فصلّه فى (الكشاف) بقوله (٢١):
وهذه آية شديدة لا ترى أشدّ منها : كأنها تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين ، واضطراب حبل اليقين ، فلينصف أورعُ الناس وأتقاهم من نفسه، هل يجد عنده من التصلب فى ذات الله ، والثبات على دين الله ، ما يستحبّ له دينه على الآباء والأبناء والأخوات والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ، ويتجرّد منها لأجله ؟
أو يُزْوِى الله عنه أحقر شئ منها لمصلحته فلا يدرى أىّ طرفيه أطول ؟
ويغويه الشيطان عن أجلّ حظ من حظوظ الدين ، فلا يبالى كأنما وقع على أنفه ذباب فطيَّره ؟!

٣– فى قوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ..} [الآيتان ٣٤ ، ٣٥] .
فوائد(٢١)

الأولى : قال بعضهم فى قوله تعالى {ليأكلون} دلالة .. على تحريم الرشوة على الباطل ، وقد ورد " لعن الله الراشى والمرتشى " (٢٢).

وكذا تحريم أخذ العوض على فعل الواجب .

وفى جواز الدفع ليتوصل إلى حقه خلاف . رجح الجواز ليتوصل إلى الحق ، كالاستفداء . قال الحاكم يدخل فى تحريم الرشا الأحكام والشهادات والفتاوى وأصول الدين وفروعه ، وكل من حرّف شيئاً لغرض الدنيا . انتهى.

الثانية : – فى الآية – كما قال ابن كثير – تحذير من علماء السوء وعبّاد الضلال ، كما قال سفيان بن عيينه : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى .

وفى الحديث الصحيح لتركبن سنن من كان قبلكم حَذّو ٠٠٠ ٠٠٠٠٠ (٢٣) قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ وفى رواية : فارس والروم ؟ قال : ومَن الناس إلا هؤلاء ؟

ثم أنشد لابن المبارك:

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

٤– فى قوله تعالى {إنما الصدقات للفقراء والمساكين .. } [الآية ٦] .

أحكام (٢١) :

الأول : ظاهر الآية يقضى بالقسمة بين الثمانية الأصناف ويؤيد هذا وجهان:

أ– ما يقتضيه اللفظ اللغوىّ ، إن قلنا : الواو للجمع والتشريك .

ب– ما رواه أبو داود فى سننه من قوله صلى الله عليه وسلم : "إن الله لم يرض بحكم نبىّ ولا غيره فى الصدقات ، حتى حكم فيها ، فجزأها ثمانية أجزاء ... " الحديث .

وقد ذهب ، إلى هذا ، الشافعىّ وعكرمة والزهرىّ ، إلا أن استغنى أحدهما فتدفع إلى الآخرين ، بلا خلاف .

وذهبت الطوائف إلى جواز الصرف فى صنف واحد ، منهم عمر وابن عباس وحذيفة وعطاء وابن جبير والحسن ومالك وأبو حنيفة ، والهادى والقاسم وأسباطهما ، وزيد .

قال فى (التهذيب) : وخرجوا عن الظاهر فى دلالة الآية المذكورة والخبر ، بوجوه :

أ– أن الله تعالى قال فى سورة البقرة {وإن تُخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم} [الآية ٧١].

فدل على أن ذكر العدد هنا لبيان جنس من يستحقها.

ب– الخبر وهو قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ : "أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة فى أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وتُرد فى فقرائهم " (٢٤) .

جـ– حديث سلمة بن صخر . فإنه عليه الصلاة والسلام جعل له صدقة بنى زريق.

د– أنه لم يظهر فى ذلك خلاف من جهة الصحابة .. فجرى كالمجمع عليه .

هـ– المعارضة للفظ بالمعنى ؛ فإن المقصود سدّ الخلة . وقال صاحب (النهاية) : وهذا أقرب إلى المعنى ، والأول أقرب إلى اللفظ .

ويؤيد أنها مستحقة بالمعنى لا بالاسم ، أنا لو قلنا تستحق بالاسم لزم أن من كان فقيراً غازياً غارماً مسافراً ، أن يستحق سهاماً لهذه الأسباب جميعاً – كذا فى تفسير بعض الزيدية .

الثانى : قال الزمخشرىّ : فإن قلت : لم عدل عن اللام إلى (فى) فى الأربعة الأخيرة ؟

قلت : للإيذان بأنهم أرسخ فى استحقاق التصديق عليهم ممن سبق ذكره ، لأن (فى) للوعاء ، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ، ويجعلوا مظنة لها ومصباً .

وذلك لما فى فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأمر ، وفى فك الغارمين من الغرم – من التخليص والإنقاذ ، ولجمع الغازى الفقير أو المنقطع فى الحج بين الفقر والعبادة ، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال .

وتكرير (فى) فى قوله تعالى {وفى سبيل الله وابن السبيل} فيه فصل ترجيح لهذين ، على الرقاب والغارمين . انتهى .

قال الناصر : وثمَّ سر آخر هو أظهر وأقرب .

وذلك : أن الأصناف الأربعة الأوائل .. ملاك لما عساه يدفع إليهم ، وإنما يأخذونه ملكاً ، فكان دخول اللام لائقاً بهم .

وأما الأربعة الأواخر .. فلا يملكون ما يصرف نحوهم ، بل لا يصرف إليهم ، ولكن فى مصالح تتعلق بهم .

فالمال الذى يصرف فى الراقاب .. إنما يتناوله السادة الكاتِبون والبائعون ، فليس نصيبهم مصروفاً إلى أيديهم ؛ حتى يعبر عن ذلك بـــ (اللام) المثمرة بتملكهم لما يصرف نحوهم ، وإنما هم مجال لهذا الصرف ، والمصلحة المتعلقة به .

وكذلك {الغارمون } إنما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم ، تخليصاً لذممهم ، لا لهم .

وأما {سبيل الله} فواضح فيه ذلك .

وأما {ابن السبيل} فواضح فيه ذلك .

وأما {ابن السبيل} فكأنه كان مندرجاً فى سبيل الله ، وإنما أفرد بالذكر تنبيهاً على خصوصيته ، مع أنه مجرد من الحرفين جميعاً ، وعطفه على المجرور (باللام) ممكن ، ولكنه على القريب منه .

٥- فى قوله تعالى {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ..} [الآيتان ١٢٨ ، ١٢٩](٢٥) .

روى أحمد والبخارى والترمذى وغيرهم عن زيد بن ثابت فى جمع القرآن وكتابته فى عهد أبى بكر أنه قال : حتى وجدت من سورة التوبة آيتين عند خُزَيمة الأنصارى لم أجدهما مع أحد غيره {لقد جاءكم رسول من أنفسكم} إلى آخرها .

يريد أنه لم يجدهما مكتوبتين عندما جمع المكتوب فى الرقاع والأكتاف ٠٠ إلا عنده .

وقد كانتا محفوظتين معروفتين .. للكثير ، كما صرح بذلك فى الروايات الأخرى ؛ فقد أخرج ابن أبى داود فى المصاحف عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال : أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة : {لقد جاءكم رسول من أنفسكم} – إلى قوله {وهو رب العرش العظيم} إلى عمر فقال : من معك على هذا ؟ فقال : لا أدرى والله إلا أنى أشهد لسمعتهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعيتهما وحفظتهما ، فقال عمر : وأنا أشهد لسمعتهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو كانت ثلاث آيات لجعلتهما سورة على حدة ، فانظروا سورة من القرآن فألحقوها بها ، فألحقت فى آخر براءة.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر أن رجلاً من الأنصار جاء بهما عمر ، فقال عمر : "لا أسألك عليها بينة أبداً ، كذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ".

ومن هذه الروايات يُعْلم : أن الآيتين كانتا محفوظتين مشهورتين ، إلا أنهم اختلفوا فى موضعهما .

ففى بعضها : أنهما آخر سورة براءة بالتوقيف من النبى صلى الله عليه وسلم .

وفى بعضها : أنهما وضعتا بالرأى والاجتهاد .

ولكن المعتمد هو الأول ، لأن من حفظ التوقيف حجة على من لم يحفظ .

قال الحافظ بن حجر فى شرح البخارى : إن زيداً لم يكن يعتمد فى جمع القرآن على علمه ولا يقتصر على حفظه .. واكتفاؤه بخزيمة وحده إنما كان لأنه لم يجدهما مكتوبتين عند غيره ، وإن كانتا محفوظتين عنده وعند غيره .

وحسبك دليلاً على ذلك قوله : إنهم كانوا يسمعون رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها، فهو صريح فى أن البحث عمن كتبها فقط أهـ .

فجملة القول : أن الآيتين كانتا محفوظتين ومكتوبتين ومعروفتين لكثير من الصحابة .

وإنما اختلفوا حين الجمع فى موضع كتابتهما حتى شهد من شهد أن النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى وضعهما فى آخر سورة براءة ؛ وفاقا لقول أبىّ بن كعب ، وهو أحد الذين تلقَّوا القرآن كله مرتباً عن النبى صلى الله عليه وسلم وكذا زيد بن ثابت .

وكان عدد المختلفين فى موضعهما قليلاً ، فلما كُتِبَتَا فى المصاحف وافق الجميع على وضعهما هذا ، ولم يروْا أىّ اعتراض على ذلك ممن كتبوا لأنفسهم مصاحف اعتدوا فيها على حفظهم ، كابن مسعود رضى الله عنه .

ثانى عشر : مصادر المفاتيح و هوامش البحث

ثانى عشر :مصادر المفاتيح و هوامش البحث

١- أنظر : السخاوى .. جمال القراء ٣٦/١.
الفيروزابادى.. بصائر ذوى التمييز ٢٢٨/١.
البقاعى .. نظم الدرر (تفسير التوبة).
الزركشى .. البرهان (النوع ١٤).
السيوطى .. الاتقان (النوع ١٧).
٢- أنظر : محمد فؤاد عبد الباقى .. المعجم الفهرس لألفاظ القرآن (مادة :توب(
٣- الآلوسى .. روح المعانى (تفسير التوبة) .
٤-ابن العربى .. أحكام القرآن (تفسير التوبة).
٥- الألوسى .. روح المعانى (تفسير التوبة).
الفخر الرازى .. التفسير الكبير (تفسير التوبة).
٦- الفيروزابادى .. بصائر ذوى التمييز ٢٢٨/١.
٧- أنظر : السخاوى .. جمال القراء ٣٦/١.
البقاعى .. نظم الدرر (سورة التوبة)
السيوطى .. الاتقان (النوع ١٧).
٨- أنظر : البقاعى ، والسيوطى (مصادر سابقة) .
٩- السيوطى (مصدر سابق) .
١٠- البقاعى نظم الدرر (تفسير التوبة) .
١١- الزركشى .. البرهان فى علوم القرآن (النوع ١٤) .
١٢- أنظر: مكى ابن أبى طالب.. التبصرة ص ٢١٤ .
السخاوى .. جمال القراء ٣٦/١ .
الفيروزابادى .. بصائر ٢٢٧/١ .
الآلوسى .. روح المعانى (تفسير التوبة) .

النيسابورى .. غرائب القرآن (تفسير التوبة).
وفيه : (١٠٠٨٧) حرفاً .

١٣- رشيد رضا .. تفسير المنار (سورة التوبة) .
١٤- النيسابورى .. غرائب القرآن (تفسير التوبة) .
١٥- سيد قطب .. فى ظلال القرآن (تفسير التوبة) .
١٦- د/ محمد حجازى .. التفسير الواضح (تفسير التوبة) .
١٧- أنظر : الرازى .. مسائل الرازى وأجوبتها ص ١١١ .
القرطبى .. الجامع لأحكام القرآن (تفسير التوبة) .
١٨- الفخر الرازى .. التفسير الكبير (تفسير التوبة) .
١٩- أنظر : ابن العربى .. أحكام القرآن (تفسير التوبة) .
٢٠- سعيد حوى .. الأساس فى التفسير (تفسير التوبة) .
٢١- القاسمى .. محاسن التأويل (تفسير التوبة) .
٢٢- الترمذى .. السنن ، كتاب : الأحكام ، باب : ما جاء فى الراشى والمرتشى .
٢٣- البخارى .. الصحيح ، كتاب : الأنبياء ، باب : ما ذكر عن بنى إسرائيل.
٢٤- البخارى .. الصحيح ، كتاب : الزكاة ، باب : وجوب الزكاة.
٢٥- المراغى .. تفسير المراغى (تفسير التوبة) .

فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

مفاتيح سورة يونس

أولاً:اسم السورة

تسمى هذه السورة باسم سيدنا (يونس) عليه السلام(١) .
وبالرغم من ورود ذكره فى غير هذه السورة ٠٠ !!
إذ ورد ذكره فى القرآن الكريم ست مرات:
أربع منها بالاسم الصريح (النساء – الأنعام – يونس – الصافات) .
وورد ذكره بالوصف مرتين (فى الأنبياء : ذا النون – فى ن : صاحب الحوت) .
وبالرغم من طول الحديث عنه فى غير هذه السورة ٠٠ !!
إذ فى الأنبياء : آيتان ، وفى القلم : ثلاث ، وفى الصافات : عشر آيات.
إلا أن هذه الآية التى وردت هنا : تثبت حدثاً لم يحدث فى التاريخ من قوم سابقين ، ولم يتكرر مع قوم لاحقين .

حيث تثبت هذه الآية : أن قوم يونس كان العذاب يتهددهم ، نتيجة لعدم إيمانهم ، وفقاً لسنة الله تعالى فى إهلاك المكذبين.
ولكنهم: آمنوا ورجعوا إلى الله تعالى فى اللحظة الأخيرة، قبل وقوع العذاب بهم، فكشف الله سبحانه عنهم هذا العذاب ، ودفع عنهم هذا الخزى.
بقوله تعالى: فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين [الآية ٩٨] .
وفى هذا: غاية ما يفيد فيه الإيمان ، وضرر تركه وتأخيره ، وهو المقصد الأول من إنزال الكتاب(٢) .
ولعله لهذا الحديث الفريد : سميت السورة باسم هذا النبى الكريم عليه السلام(٣) .

ثانياً : عدد آيات السورة و كلماتها و حروفها

آياتها :
(١٠٩) مائة وتسع آيات (٤).
كلماتها :
(١٤٩٩) ألف وأربعمائة وتسع وتسعون كلمة .
حروفها :
(٧٠٦٥) سبعة آلاف وخمسة وستون حرفاً .

ثالثاً : ترتيب السورة فى المصحف و فى النزول

أ- فى المصحف ..
بعد سورة "التوبة" ، وقبل : سورة "هود" .
ب- فى النزول ..
بعد سورة "الإسراء" ، وقبل : سورة "هود" .

رابعاً : سبب نزول السورة

لم أعثر على آثار فى ذلك .

خامساً : مكية السورة و مدنيتها

نزلت هذه السورة فى العهد الملكى ، وفى ظروف بلغ فيها العناد والجدال من المشركين مع النبى صلى الله عليه وسلم حداً كبيراً .

إذّ ورد أنها نزلت بعد سورة الإسراء التى حمى الجدل مع المشركين بعد نزولها حول : هذا القرآن ، وصدق الوحى به ، وما يواجههم به من تسفيه لعقائدهم ، وتنديد بجاهليتهم ، وما يترتب على ذلك من تكذيبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعواه الوحى والنبوة ، ويرمونه به من السحر، ثم يطلبون منه الآيات الخارقة التى تثبت لهم دعواه .

إذ قالوا {لن نؤمن لك حتى} :
{تفجر لنا من الأرض ينبوعاً }.. !!
{أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً} .. !!
{أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً }.. !!
{أو يكون لك بيت من زخرف} .. !!
{أو ترقى فى السماء . ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه} .
فقال له تعالى :
{قل : سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً} ؟
بل أنبئهم بهذه الحقيقة ، التى ليسوا بدعاً فيها
{وما منع الناس أن يؤمنوا إذّ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً} [الإسراء ٩٠-٩٤] .

وكانت هذه السورة – فى نفس الظروف، وعلى نفس الخط – التى تنبئ أنهم .. قالوا {لولا أنزل عليه آية من ربه} ؟

ويقول سبحانه للنبى صلى الله عليه وسلم: {فقل إنما لغيب لله فانتظروا إنى معكم من المنتظرين} [يونس ٢٠] .

بل كانوا يطلبون من رسول الله ، لكى يستجيبوا له ، ويؤمنوا به : أن يأتيهم بقرآن غير هذا ، لا يتعرض لآلهتهم وعقائدهم وجاهليتهم .

إذْ يقول سبحانه :

{وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات }.. !!

{قال الذين لا يرجون لقائنا} :

{ائت بقرآن غير هذا أو بدله} [يونس ١٥-١٧] .

أى بقرآن لا يسفه أحلامنا ولا يزلزل عقائدنا ، ولا يسئ لآلهتنا .

ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، لا ينطق عن الهوى ، بل إن ما ينطق به {وحى يوحى} [النجم ٤] .

فهو يرد عليهم قائلاً :

{ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم} [يونس ١٥-١٧] .

كما يقول له ربه تعالى :

{قل : لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون} ؟ [يونس ١٥-١٧] ؟

ولكن طبيعة الظالمين المجرمين: أنهم يكذبون .

{فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون} [يونس ١٥-١٧] .

سادساً : فضل السورة

لم أعثر على آثار فى ذلك .

سابعاً : صلة السورة بما قبلها

أ- يلاحظ أننا نعود مع هذه السورة – بعد الحديث عن الأنفال والتوبة قبلها مباشرة – إلى القرآن فى العهد الملكى ، بعد تعرضنا له قبلاً عند الحديث عن سورتى الأنعام والأعراف المكيتان .

والعجيب أن هذه السورة وسورة هود بعدها ، المتتاليتين فى النزول .

كذلك : بينهما شبه كبير وبين سورتى الأنعام والأعراف فى :

الموضوع .

وطريقة عرض هذا الموضوع كذلك .

فإذا كانت سورة الأنعام – كما سبق أن ذكرنا – تتناول حقيقة العقيدة ذاتها ، وتواجه الجاهلية بها ، وتفند هذه الجاهلية ، عقيدة وشعوراً ، وعبادة وعملاً .. !!

بينما سورة الأعراف – كما سبق كذلك – تتناول حركة هذه العقيدة فى الأرض ، وقصتها فى مواجهة الجاهلية على مدار التاريخ .. !! .

فإننا هنا مع سورتى يونس وهود ، فى شبه كبير .
فى الموضوع .
وفى طريق العرض أيضاً .
مع احتفاظ كل سورة من هذه السور بشخصيتها الخاصة وملامحها المميزة(٥).

ب- كما يلاحظ أيضاً :
أن التناسب بين السور المدنية وبعضها البعض ، وبين السور المكية وبعضها البعض : يكون أقوى مما هو بين سورة من هذا وسورة من ذاك.
جـ- كما يلاحظ ثالثاً :
أن التناسب الذى يوجد بين السور : ليس هو سبب الترتيب الموجود فى المصحف ، فإن العمدة فى هذا الترتيب : هو التوقيف والسماع(٦) .
د- ويلاحظ رابعاً :
أن فى الفصل بين السور القوية التناسب فى المعانى: كالمكية ، التى موضوع أكثرها .. العقائد والأصول العامة والزواجر الصادعة، والمدنية، التى موضوع أكثرها .. الأحكام العملية .
فى ذلك الفصل : تنشيط لتالى القرآن بالترتيب ، وأنآى به عن الملل ، وأدعى له إلى التدبر (٧).
هـ- ومع ذلك فهناك من المناسبات ما يلى :
١) إذا كانت التوبة : قد ختمت بذكر رسالة النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ..} [التوبة ٢٨] .
فإن يونس : قد افتتحت بذكر هذه الرسالة فى قوله {أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا ..} [يونس ٢] .

٢) إذا كان فى التوبة : بيان لما يقوله المنافقون عند نزول سورة من القرآن ، فى قوله تعالى: {وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون} [التوبة ١٢٤ ، ١٢٥] .
فإن فى يونس : بيان لما يقوله الكفار فى القرآن الكريم .. إقرأ قوله تعالى – مثلاً – {وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقائنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله} [يونس ١٥-١٧] .
٣) إذا كانت التوبة : تضمنت ذم المنافقين لعدم توبتهم وتذكرهم إذا أصابهم البلاء، فى قوله تعالى {أو لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون} [التوبة ١٢٦].
فإن يونس: تضمنت كذلك ذم من يصيبه البلاء فيرعوى ثم يعود ، فى مثل قوله تعالى {وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه} [يونس ١٢].
وذلك بصفة عامة .

٤) إذا كان فى التوبة : براءة الرسول من المشركين مع الأمر بقتالهم على أتم وجه ، فى مثل قوله تعالى {براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتهم من المشركين} ٠٠ إلى قوله {فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم} [التوبة ١-٥] .

ففى يونس: براءته صلى الله عليه وسلم من عملهم دون الأمر بقتالهم – ومعلوم أن هذه متقدمة فى النزول على تلك – فى قوله تعالى : {وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برئ مما تعملون}[يونس ٤١] .

ثامناً : هدف السورة

تهدف هذه السورة بكل جلاء ووضوح(٥) إلى:

إبراز وتجلية حقيقتين هامتين هما :

قضية الألوهية .

وقضية العبودية .

ولتتميم الإيضاح وتعميق المدلول وتوسيعه لهاتين القضيتين : فقد تعرضت السورة .. لقضية الوحى ، وقضية الآخرة ، وقضية الرسالات السابقة.

وذلك من باب : بيان مقتضيات هاتين الحقيقتين فى حياة البشر واعتقادهم وعبادتهم وعملهم .

وهذا هو الهدف الأساسى من السورة .

وهو – نفسه – هدف القرآن المكى بصفة خاصة .

كما أنه : هدف القرآن كله بصفة عامة .

ولا غرابة فى أن يكون الأمر على هذا النحو ، وأن تأخذ هذه الحقيقة الكبرى كل هذا البيان ، الذى هو موضوع القرآن ، بل أن يرسل الله من أجلها كل رسله ، وأن ينزل بها كتبه جميعاً .

إذ أن حياة البشر لا تستقيم إلا إذا استقامت هذه الحقيقة فى اعتقادهم وتصورهم ، واستقامت كذلك فى حياتهم وواقعهم .

فهى لا تستقيم إزاء هذا الكون الذى يعيشون فيه إلا إذا استقامت هذه الحقيقة عندهم.

ولا تستقيم كذلك حياتهم – إزاء بعضهم البعض – إلا إذا استقامت هذه الحقيقة عندهم.

والواقع البشرى على مدار التاريخ : يثبت ذلك ويصدقه .

فإنه ما من مرة انحرف الناس فيها عن الدينونة لله وحده – اعتقاداً ونظاماً – ودانوا لغير الله تعالى من العباد – سواء بالاعتقاد والشعائر، أو باتباع الأحكام والشرائع – إلا كانت العاقبة .. هى فقدانهم وكرامتهم وحريتهم .

من أجل ذلك : تنال قضية الألوهية والعبودية كل تلك العناية فى رسالات الله سبحانه وفى كتبه .

ومن أجل ذلك : كانت هذه السورة نموذجاً من تلك العناية .

وسبب كل هذا الاهتمام .. ببساطة شديدة :

أن هذه القضية لا تتعلق بعبدة الأصنام والأوثان فى الجاهليات الساذجة البعيدة .. !! .

ولكنها .. تتعلق بالإنسان كله فى كل زمان وفى كل مكان .

وتتعلق بالجاهليات كلها .

جاهليات ما قبل التاريخ ، وجاهليات التاريخ ، وجاهليات هذه العصور ، وكل جاهلية تقوم على أساس من عبادة العباد للعباد .

تاسعاً : تقسيم آيات السورة موضوعيا

عاشراً : أبرز موضوعات السورة

حادى عشر : بعض الدروس المستفادة

ثانى عشر : مصادر المفاتيح و هوامش البحث

فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

مفاتيح سورة هود

أولاً:اسم السورة

هذه السورة تسمى باسم نبى من أنبياء الله تعالى وهو : هود عليه السلام ، الذى أرسله الله تعالى إلى قوم عاد بمساكنهم التى كانت فى أرض الأحقاف جهة اليمن والذى عاش ٤٦٤ عاماً(١) .

وقد أضيفت إليه : لتضمنها نبأه مع قومه ، وتمييزا لها عن غيرها ، وإن تضمنت أنباء غيره من الأنبياء عليهم السلام(٢) .

وقال الهايمىّ : سميت به لقوله تعالى (إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم) [هود ٥٦] الدال على توحيد الأفعال ، مع استقامته بإعطاء كل مستعد ما يستعد له ، المقتضية للأحكام والجزاء ، وهى من أعظم المقاصد(٢) .

هذا ..

وقد ذكر هود عليه السلام – صراحة – فى القرآن الكريم (سبع مرات) .

فى الأعراف : مرة واحدة ، وقد استغرقت قصته فيها آيات ثمان .

وفى الشعراء : كذلك مرة واحدة ، وقد استغرقت قصته عليه السلام فيها ثمان عشرة آية .

وفى هود : خمس مرات ، وقد استغرقت قصته فيها إحدى عشرة آية .

وكانت قصته عليه السلام مع قومه ، ودعوتهم لهم ، وعنادهم له ، فى هذه السورة ، أوضح وأكمل مما فى غيرها من السور .. !! .

فلا غرابة أن سميت السورة باسمه عليه السلام ، والله أعلم .

فإن قيل : قد ورد – فى سورة هود – ذكر .. نوح ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وشعيب ، وموسى عليهم السلام .. !! .

فلم تختص باسم هود وحده .. ؟

وما وجه تسميتها به .. خاصة : وأن قصة "نوح" عليه السلام فيها ، أطول وأوعب .

قيل : تكررت هذه القصص فى .. سورة الأعراف ، وسورة هود ، وسورة الشعراء ، بأوعب مما وردت فى غيرها ، ولم يتكرر فى واحدة من هذه السور الثلاث – كما رأينا – اسم "هود" عليه السلام ، كتكرره فى هذه السورة .

والتكرار من أقوى الأسباب فى تسمية السورة .

فإن قيل أيضاً : قد تكرر اسم "نوح" عليه السلام – فى هذه السورة – فى ستة مواضع فيها ، وذلك أكثر من تكرار اسم "هود" عليه السلام .. !! .

فلم لم تسم باسم "نوح" عليه السلام .. ؟

قيل : لما حددت لذكر "نوح" وقصته مع قومه .. سورة برأسها ، فلم يقع فيها غير ذلك – وهى سورة نوح – كانت أولى أن تسمى باسمه عليه السلام من سورة تضمنت قصته وقصة غيره ، وإن تكرر اسمه فيها .

وأما هود فكانت – هذه السورة – أولى السور بأن تسمى باسمه عليه السلام(٣) .

ثانياً : عدد آيات السورة و كلماتها و حروفها

وعدد آيات هذه السورة : ١٢٣ آية .
وعدد كلماتها : ١٩١١ كلمة .
وعدد حروفها : ٧٦٥٠ حرف .

ثالثاً : ترتيب السورة في المصحف و في النزول

أ–فى المصحف .. بعد : سورة "هود" ، وقبل : سورة "يوسف" .
ب–فى النزول .. بعد : سورة "يونس" ، وقبل : سورة "يوسف".

رابعاً : سبب نزول السورة

نزلت هذه السورة بمكة ، قبل الهجرة بثلاث سنوات تقريباً كما أنها نزلت بعد "يونس" ، التى نزلت بعد الإسراء .
وهذا – كما يقول شهيد الإسلام السيد قطب(٥) – يحدد معالم الفترة التى نزلت فيها ، وهى من أحرج الفترات وأشقها فى تاريخ الدعوة بمكة .
فقد سبقها :
موت أبى طالب وخديجة .
وجرأة المشركين على ما لم يكونوا ليجرؤوا عليه فى حياة أبى طالب – خاصة بعد حادث الإسراء وغرائبه ، واستهزاء المشركين به ، وارتداد بعض من كانوا أسلموا قبله – مع وحشة رسول الله صلى الله عليه وسلم من خديجة رضى الله تعالى عنها – فى الوقت الذى تجرأت فيه قريش عليه وعلى دعوته . وبلغت فى الوقت الذى قرأت فيه قريش عليه وعلى دعوته – وبلغت الحرب المعلنة عليه وعلى دعوته أقس وأقصى مداها .
وتجمدت حركة الدعوة حتى ما كان يدخل فى الإسلام أحد من مكه وما حولها وذلك : قبيل أن يفتح الله على رسوله وعلى القلة المسلمة مع بيعة العقبة الأولى ثم الثانية .
قال ابن اسحق : ثم إن خديجة وأبا طالب ماتا فى عام واحد ٠٠ وذلك قبل مهاجرته إلى المدينة بثلاث سنين .
ونالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب .
وقد اعترضه – فى هذه الظروف – سفيه من سفهاء قريش ، فنثر على رأسه تراباً ، ... ، فلما دخل صلى الله عليه وسلم بيته والتراب على رأسه ، قامت إليه إحدى بناته ، فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى ، وهو صلى الله عليه وسلم يقول لها : "لاتبكى يا بنية ، فإن الله مانع أباك" ... ويقول بين ذلك "مانالت منى قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب" .
قال المقريزى فى "امتاع الاسماع" :
فعظمت المصيبة بموتهما – على رسول الله صلى الله عليه وسلم – وسماه "عام الحزن" ، لأنه لم يكن فى عشيرته وأعمامه حامياً له ، ولا ذابا عنه غيره .
ففى هذه الفترة : نزلت "هود" و "يونس" قبلها ، وقبلهما سورة الإسراء .
وكلها تحمل طابع هذه الفترة ، وتحدث عن مدى تحدى قريش وتعديها(١).

خامساً : مكية السورة و مدنيتها

أ-أسند أبو محمد الدرامى فى مسنده عن كعب قال :
"فاتحة التوراة : الأنعام ، وخاتمتها : "هود" .
وأسند عنه أيضاً وعن عبد الله بن رباح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "اقرؤا سورة هود يوم الجمعة"(٦) .
ب- وروى عن الترمذى – كما ذكر القرطبى – عن ابن عباس قال : قال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله قد شبت ! قال "شيبتنى هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت"(٧) .
يقول القرطبى رضى الله عنه : وسبب ذلك ، ما ذكر من قصص الأمم ، وما حل بهم من عاجل بأس الله تعالى(٨) .
فأهل اليقين إذا تلوها : ترائى على قلوبهم من ملكه وسلطانه ... والبطش بأعدائه ، فلو ماتوا من الفزع لحق لهم ، ولكن الله تبارك وتعالى يلطف بهم فى تلك الأحايين حتى يقرؤا كلاً من : وأما أخواتها –.. الخ .
وقد قيل : إن الذى شيب النبى صلى الله عليه وسلم منها قوله تعالى (فاستقم كما أمرت ..) [هود ١١٢] .
وذلك : لما روى عن أبى عبد الرحمن السلمى قال : سمعت أبا على السَّرى يقول : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقلت : يا رسول الله روى عنك أنك قلت "شيبتنى هود" فقال : نعم ، فقلت : ما الذى شيبك فيها ؟ .. قصص الأنبياء وهلاك الأمم !! فقال : لا ، ولكن قوله تعالى (فاستقم كما أمرت) .

سادساً : فضل السورة

أ- عرفت أنها نزلت بعد سورة "يونس" ، وهى نفسها التى تسبقها فى المصحف الشريف .
وهما تشتركان فى الهدف والموضوعات تقريباً ، وهو : أصول عقائد الإسلام فى الالهيات والنبوات والبعث والجزاء وعمل الصالحات .
وهى بذلك مناسبة لها كل المناسبة ، بصفة عامة .
ب- هذا ٠٠ وبصف خاصة(١١)
١) ففيهما براعة المطلع .
فإذا كانت يونس قد افتتحت بذكر القرآن
وذكر الإمام القرطبى أيضاً : أن يزيد بن أبان قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامى ، فقرأت عليه سورة هود ، فلما ختمتها ، قال – صلى الله عليه وسلم ٠٠٠ يا يزيد هذه القراءة ٠٠ فأين البكاء" ؟(٨).
يقول الإمام الآلوس :
وكل ذلك يدل على : خطرها ، وعظم ما اشتملت عليه ، وأشارت إليه ، وهو الذى صار سبباً لإسراع الشيب إليه صلى الله عليه وسلم(٩) .
الكريم بعد (الر) فى قوله تعالى (الر تلك آيات الكتاب الحكيم) .
فإن هود قد افتتحت بذكر القرآن الكريم – كذلك – بعد (الر) فى قوله تعالى (الر كتاب أحكمت آياته) .
٢) وفيهما شدة الارتباط بين خاتمة يونس ومطلع هود .

فإذا كانت يونس قد ختمت بنفى الشرك فى قوله تعالى (ولا تكونن من المشركين)(١) [يونس ١٠] واتباع الوحى فى قوله تعالى (واتبع ما يوحى إليك) [يونس ١٠٩] .
فإن سورة هود قد افتتحت ببيان الوحى والتحذير من الشرك فى قوله تعالى (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير * ألا تعبدوا إلا الله) .
٣) أن فيهما قصة نوح عليه السلام
وبينما كانت مختصرة جداً فى يونس ، حينما ذكرت فى قوله تعالى (واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ٠٠) [يونس ٧١-٧٤] .
فقد جاءت مبسوطة مشروحة فى سورة هود على نحو لم تبسط عليه فى غيرها من السور ، ولا سورة الأعراف على طولها [الأعراف ٥٩-٦٤] ، ولا سورة (إنا أرسلنا نوحاً) التى أفردت لقصته [عدد آياتها ٢٨ آية].
وذلك فى قوله تعالى (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين ٠٠) [هود ٥-٤٨] .
٤) فى السورتين قصص من القرآن
وإذا كانت يونس تحتوى على جانب من القصص مجمل ، إشارة إلى قصة نوح – كما ذكرنا – وإشارة إلى الرسل من بعده ، وشيء من التفصيل فى قصة موسى ، وإشارة مجملة إلى قصة يونس ٠٠ !! .
فإن هذا القصص : إنما يجئ فيها شاهداً ومثالاً لتصديق الحقائق الاعتقادية التى تستهدفها السورة .
وإذا كانت هود تحتوى – كذلك – على القصص الذى يكون جسمها وهيكلها الرئيسى ٠٠ !! .
وهو وإن جاء شاهداً ومثالاً لتصديق الحقائق الاعتقادية التى تستهدفها السورة ٠٠ !! .
فإن هذا القصص : يبدو فيه أن استعراض حركة العقيدة الربانية فى التاريخ البشرى هو الهدف الواضح البارز .
وبالجملة فقد أجمل فى كل منهما بأفضل فى الأخرى ، مع فوائد انفردت بها كل منهما(١٢) .
فهما باتفاق الموضوع ، واختلاف النظم والأسلوب : آيتان من آيات الاعجاز ، تخر لتلاوتهما الوجوه للأذقان ، ساجدة للرحمن(١٠) .

سابعاً : صلة السورة بما قبلها

أ- عرفت أنها نزلت بعد سورة "يونس" ، وهى نفسها التى تسبقها فى المصحف الشريف .
وهما تشتركان فى الهدف والموضوعات تقريباً ، وهو : أصول عقائد الإسلام فى الالهيات والنبوات والبعث والجزاء وعمل الصالحات .
وهى بذلك مناسبة لها كل المناسبة ، بصفة عامة .
ب- هذا .. وبصف خاصة(١١)
١) ففيهما براعة المطلع .
فإذا كانت يونس قد افتتحت بذكر القرآن
وذكر الإمام القرطبى أيضاً : أن يزيد بن أبان قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامى ، فقرأت عليه سورة هود ، فلما ختمتها ، قال – صلى الله عليه وسلم ... يا يزيد هذه القراءة .. فأين البكاء" ؟(٨).
يقول الإمام الآلوس :
وكل ذلك يدل على : خطرها ، وعظم ما اشتملت عليه ، وأشارت إليه ، وهو الذى صار سبباً لإسراع الشيب إليه صلى الله عليه وسلم(٩) .

الكريم بعد (الر) فى قوله تعالى (الر تلك آيات الكتاب الحكيم) .
فإن هود قد افتتحت بذكر القرآن الكريم – كذلك – بعد (الر) فى قوله تعالى (الر كتاب أحكمت آياته) .
٢) وفيهما شدة الارتباط بين خاتمة يونس ومطلع هود .
فإذا كانت يونس قد ختمت بنفى الشرك فى قوله تعالى (ولا تكونن من المشركين)(١) [يونس ١٠] واتباع الوحى فى قوله تعالى (واتبع ما يوحى إليك) [يونس ١٠٩] .
فإن سورة هود قد افتتحت ببيان الوحى والتحذير من الشرك فى قوله تعالى (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير * ألا تعبدوا إلا الله) .
٣) أن فيهما قصة نوح عليه السلام
وبينما كانت مختصرة جداً فى يونس ، حينما ذكرت فى قوله تعالى (واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ..) [يونس ٧١-٧٤] .
فقد جاءت مبسوطة مشروحة فى سورة هود على نحو لم تبسط عليه فى غيرها من السور ، ولا سورة الأعراف على طولها [الأعراف ٥٩-٦٤] ، ولا سورة (إنا أرسلنا نوحاً) التى أفردت لقصته [عدد آياتها ٢٨ آية].
وذلك فى قوله تعالى (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين ..) [هود ٥-٤٨] .
٤) فى السورتين قصص من القرآن
وإذا كانت يونس تحتوى على جانب من القصص مجمل ، إشارة إلى قصة نوح – كما ذكرنا – وإشارة إلى الرسل من بعده ، وشىء من التفصيل فى قصة موسى ، وإشارة مجملة إلى قصة يونس .. !! .
فإن هذا القصص : إنما يجئ فيها شاهداً ومثالاً لتصديق الحقائق الاعتقادية التى تستهدفها السورة .
وإذا كانت هود تحتوى – كذلك – على القصص الذى يكون جسمها وهيكلها الرئيسى .. !! .
وهو وإن جاء شاهداً ومثالاً لتصديق الحقائق الاعتقادية التى تستهدفها السورة .. !! .
فإن هذا القصص : يبدو فيه أن استعراض حركة العقيدة الربانية فى التاريخ البشرى هو الهدف الواضح البارز .
وبالجملة فقد أجمل فى كل منهما بأفضل فى الأخرى ، مع فوائد انفردت بها كل منهما(١٢) .
فهما باتفاق الموضوع ، واختلاف النظم والأسلوب : آيتان من آيات الاعجاز ، تخر لتلاوتهما الوجوه للأذقان ، ساجدة للرحمن(١٠) .

ثامناً : هدف السورة

تهدف السورة إلى :

١) أن ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم وما جاء به الرسل من قبله حقيقة واحدة موحى بها من الله سبحانه .

وهى تقوم على :

الدينونة لله وحده بلا شريك

والتلقى فى هذه الدينونة عن رسل الله وحدهم ، كذلك .

والمفاصلة بين الناس على أساس هذه الحقيقة .

٢)بيان أن الناس جميعاً فى قبضة الله تعالى – الذى تتولى السورة تعريفهم به – فى هذه الدنيا – وأنهم راجعون إليه يوم القيامة ، ليجزيهم الجزاء الأخير .

وذلك : ليدينوا جميعاً لله تعالى وحده بالربوبية .

ويتم للتعريف بحقيقة الألوهية ، وحقيقة الآخرة فى سياق السورة ، وهى تقرر الربوبية .

ويلاحظ جيداً : أنها لا تستهدف إثبات وجود الله سبحانه ، إنما تستهدف تقرير الربوبية التى كانت تواجهها الرسالات ، وهى التى كانت – كذلك – تواجهها الرسالة الأخيرة .

إنها قضية الدينونة لله وحده بلا شريك ، والخضوع لله وحده بلا منازع ، ورد أمر الناس كلهم إلى بسلطانه ، وقضائه ، وشريعته ، وأمره .

٢)استعراض حركة العقيدة الربانية التى رسختها السورة السابقة ، فى التاريخ البشرى .

تاسعاً : تقسيم آيات السورة موضوعيا

تتكون آيات هذه السورة الكريمة من مقدمة وستة أقسام .

المقدمة .. عبارة عن آية واحدة ، وهى الآية الأولى .

وفيها : الحديث عن القرآن الكريم ، وحكمة آياته ، وتفصيلها من لدنه عز وجل.

والقسم الأول .. عبارة عن (٢٣) آية

من الآية (٢) إلى نهاية الآية (٢٤) .

وفيه : تقرير أن هذا القرآن أحكم وفصل من أجل عبادة الله واستغفاره ، وقد فصل هذا القسم كثيراً من مضامين العبادة ومظاهرها ، كما بين الكثير مما تقتضيه العبادة له فى كل حال ، وقدم – كذلك – نماذج على ندارته وبشارته .

والقسم الثانى .. عبارة عن (٤٤) آية .

من الآية (٢٥) حتى نهاية الآية (٦٨) .

وفيه : الحديث عن ثلاث قصص الأنبياء دعوا قومهم إلى عبادة الله ، وهم: نوح ، وهود ، وصالح ، وقد قدم هذا القسم خلال ذك انذارات وبشارات من خلال عرضه لقصص هؤلاء الأنبياء ، ومواقف أقوامهم معهم ، وما آل إليه أمر هؤلاء وهؤلاء ، وذلك يعمق قضية العبادة والاستغفار .

والقسم الثالث : عبارة عن (١٥) آية .

من (٦٩) إلى (٨٣) وفيه : الحديث عن قصة إبراهيم عليه السلام وقصة لوط عليه السلام ، ومن خلال ذلك الحديث : يرينا الله تعالى رعايته لعِبَاده وعُبَّادِه.

والقسم الرابع : وهو عبارة عن (١٢) آية .

من (٨٤) حتى نهاية الآية (٩٥) .

وفيه الحديث عن قصة شعيب الذى دعا إلى عبادة الله وحده وإلى الاستغفار وسلوك نظيف يكون أثراً عن عبارة الله ، وكيف رد عليه قومه ؟ وماذا كانت عاقبة هذا الرد ؟ .

والقسم الخامس : عبارة عن (١٣) آية .

من (٩٦) حتى نهاية الآية ١٠٨) .

وفيه : الحديث عن موسى عليه السلام ، ورسالته إلى فرعون ، وبيان عاقبة فرعون وقومه ، وكذلك : تهديد ووعيد لكل ظالم .

والقسم السادس والأخير .. عبارة عن (١٥) آية .

من (١٠٩) حتى نهاية السورة بالآية (١٢٣) .

وفيه : تعقيبات وتوجيهات .. تنسجم مع جو السورة وهدفها وسياقها ، خاصة وأنه جاء عقيب الأقسام السابقة التى تجعل عند الإنسان الاستعداد للتطبيق الخالص .

ولذلك : فهو قسم عملى تطبيقى فى الغالب .

عاشراً : أبرز موضوعات السورة

يقول المرحوم سيد قطب :

إذا كانت سورة الأنعام – وهى مكية – تتبادل حقيقة العقيدة ذاتها ، وتواجه الجاهلية بها ، وتقيد هذه الجاهلية ، عقيدة وشعوراً ، وعبادة وعملاً .

بينما سورة الأعراف – المكية التالية لها فى المصحف تتناول حركة هذه العقيدة فى الأرض وقصتها فى مواجهة الجاهلية على مدار التاريخ .

فنحن هنا مع سورتى يونس وهود – المكيتان ، المتتاليتان فى النزول والمصحف – : فى شبة كبير فى الموضوعات ، وفى طريقة العرض أيضاً .

وعلى هذا : فإن سورة هود تتناول – كذلك – حركة العقيدة فى الأرض ، وقصتها فى مواجهة الجاهلية على مدار التاريخ .

وهى بهذه الحركة ، وتلك المواجهة تضع الأسس لمواجهة كل جاهلية ، قديمة كانت ، أو معاصرة ، أو مستقبلية .

وموضوعات السورة العديدة تسير فى هذا الإطار العام ، والخط الرئيسى.

وتركيب السورة : يحتوى على ثلاثة قطاعات متميزة .

القطاع الأول : يتضمن حقائق العقيدة فى مقدمة السورة ، ويشغل حيزاً محدوداً .

القطاع الثانى : يتضمن حركة هذه العقيدة فى التاريخ ، ويشكل معظم سياق السورة .

القطاع الثالث : يتضمن التعقيب على هذه الحركة ، فى حيز – كذلك – محدود .

وهذه القطاعات تمتلئ الكثير من الموضوعات التى تخدم بطريق مباشر وغير مباشر ، هذه بالأغراض الرئيسية فى السورة .

ونذكر بعضاً منها على النحو التالى :
١)توحيد الألوهية .
فى مثل قوله تعالى (ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير) [الآية ٢].
٢)توحيد الربوبية .
فى مثل قوله تعالى (إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مسقيم)(٣) [الآية ١٥٦] .
٣) إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم
فى مثل قوله تعالى (أمْ يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم يستجيبوا لك فاعم أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون) [الآيتان ١٣،١٤] .
٤)إثبات البعث والجزاء
فى مثـــــل قوله تعالى (إلى الله مرجعكم وهو وعلى كل شئ قدير
[الآية ٤] .
٥) بيان حركة هذه العقيدة فى التاريخ البشرى . وذلك بذكر .
قصة نوح مع قومه [هود ٢٥-٤٩] .
وقصة هود مع قومه [هود ٥٠-٦٠] .
وقصة صالح مع قومه [هود ٦١-٦٨] .
وقصة لوط مع قومه [هود ٧٧-٨٣] .
وقصة شعيب مع قومه [هود ٨٤-٩٥] .
وقصة موسى مع قومه [هود ٩٦-١٠١] .
٦) قاعدة إهلاك الله الأمم بسبب ظلمها .
فى مثل قوله تعالى (وكذلك أخذ ربك إذ أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) [هود ١٠٢] .
٧)الكثير من الترغيب والترهيب .
فى مثل قوله تعالى (وان استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً ويؤت كل ذى فضل فضله) [هود ٣] .

وفى مثل قوله تعالى (ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون لاجرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون) .
٨)عرض بعض صور النفس البشرية فى مواجهة الأحداث الجارية بالنعماء والبأساء .
فى مثل قوله تعالى (ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب عنى السيئات عنى إنه لفرح فخور) .
٩) عرض بعض مشاهد القيامة ، وصور المكذبين فيها ، وصور المصدقين بها .
فى مثل قوله تعالى (إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما نؤخره إلا لأجل معدود يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد .

فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد .

وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاءً غير مجذوذ .

١٠) بيان الكثير من مساوئ النفس البشرية ، وعاداتها .

أ- مثل : التقليد .

فى مثل قوله تعالى عن ثمود (أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا).

ب- ومثل : الطغيان .

فى مثل ... تعالى قائلاً (ولا تطغوا انه بما تعملون بصير) [الآية ١١٢] .

جـ- الظلم .

فى مثل قوله تعالى: (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد وهؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين) .

د- والركون إلى الذين ظلموا

فى مثل قوله تعالى: (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) [الآية ١١٣] .

١١) بيان الفضائل النفسية

أ- مثل : الاستغفار والتوبة .

فى مثل قوله تعالى :(واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه) [الآية ٩٠] .

ب- الصبر .

فى مثل قوله تعالى :(فاصبر إن العاقبة للمتقين) [الآية ٤٩] .

جـ- الاخبات إلى الله تعالى

فى مثل قوله تعالى: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) .

د- التوكل على الله .

فى مثل قوله تعالى : (إنى توكلت على الله ربى وربكم) [الآية ٥٦] .

حادى عشر : بعض الدروس المستفادة

١)أن الاستغفار والتوبة : طريق إلى الرخاء والمتعة والقوة (١٧).

فى مثل قوله تعالى (وان استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله) .

وفى مثل قوله تعالى: (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ..) [الآية ٥٢] .

٢) أن الله تعالى قد تكفل بقضية الرزق لكل من على وجه الأرض.

فى مثل قوله تعالى (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ..) [الآية ٦] .

٣)أن الغنى والفقر فى الدنيا ، ليس مرتبطاً بالإيمان والكفر ، وأن السر فيما عليه الكفار من رخاء : هو أن همتهم وعملهم وإرادتهم قد انصرفت إلى الدنيا فقط ، وليس لهم فى الآخرة إلا النار فقد انصرفت همتهم وإرادتهم عنها .

٤)أن اتباع الرسل والصالحين عادة ما تكون غالبيتهم من الفقراء .

يقول الملأ الذين كفروا من قوم نوح عليه السلام له (ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا) .
٥) أن الإيمان ، وهو ما وقر فى القلب : وصدقه العمل ، لا يكون بالإكراه ، إنما يكون فقط بالاقناع والاقتناع .
يقول نوح عليه السلام (يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) [الآية ٢٨].
٦)أن فلاح الجماعات والأمم بتكافل وترابط المصلحين والدعاة فيها.
يقول نوح عليه السلام (ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا) [الآية ٢٩] .
٧)أن حب الأولاد فطرة ، وبالرغم من ذلك فمصلحة الدعوة مقدمة على هذه الفطرة .
يقول تعالى (ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وأن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين) .
فقال تعالى (يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) .
وهنا يقول نوح عليه السلام : (رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين) [هود ٤٥-٤٧] .
٧) فى قوله تعالى :
(قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) [الآية ٤٨] .
ذهب العلماء ، فى الطوفان ، مذاهب شتى . فالأكثرون على أنه عمّ الأرض بأسرها ، ومن ذاهب إلى أنه لم يعم إلا الأرض المأهولة وقتئذ بالبشر ، ومن جانح إلى أنه لم يعمها كلها ولم يهلك البشر كلهم . ولكل فريق حجيج يدعم بها مذهبه(٢) .
قال تقىّ الدين المقريزىّ فى (الخطط) : إن جميع أهل الشرائع ، أتباع الأنبياء ، من المسلمين واليهود والنصارى قد أجمعوا على أن نوحاً هو الأب الثانى للبشر ، وأن العقب من آدم عليه السلام انحصر فيه ، ومنه ذرأ الله جميع أولاد آدم ، فليس أحد من بنى آدم إلا وهو من أولاد نوح ، وخالفت القبط والمجوس وأهل الهند والصين ذلك ، فأنكروا الطوفان. وزعم بعضهم أن الطوفان إنما حدث فى إقليم بابل وما وراءه من البلاد الغربية فقط ، وأن أولاد (كيرموت) الذى هو عندهم (الإنسان الأول)، كانوا بالبلاد الشرقية من بابل ، فلم يصل الطوفان إليهم ، ولا إلى الهند والصين . والحق عليه أهل الشرائع ، وأن نوحاً عليه السلام ، لما أنجاه الله ومن معه بالسفينة ، نزل بهم ، وهم ثمانون رجلاً سوى أولاده ، فماتوا بعد ذلك ، ولم يعقبوا ، وصار العقب من نوح فى أولاده الثلاثة . ويؤيد هذا قول الله تعالى عن نوح(١) : (وجعلنا ذريته هم الباقين) [الصافات ٧٧] ونحوه فى الكامل لابن الأثير .
وقد قال ابن خلدون : اتفقوا على أن الطوفان الذى كان فى زمن نوح وبدعوته ، ذهب بعمران الأرض أجمع ، بما كان من خراب المعمور، وهلك الذين يركبوا فى السفينة ، ولم يعقبوا ، فصار أهل الأرض كلهم من نسله ، وعاد أباً ثانياً للخليقة – انتهى – .
قال بعضهم (فى تقرير عموم الطوفان ، مبرهناً عليه) إن مياه الطوفان قد تركت آثاراً عجيبة فى طبقات الأرض الظاهرة ، فيشاهد فى أماكن رواسب بحرية ممتزجة بالأصداف ، حتى فى قمم الجبال ، ويرى فى السهول والمفاوز بقايا حيوانية ونباتية مختلطة بمواد بحرية ، بعضها ظاهر على سطحها ، وبعضها مدفون على مقربة منه . واكتشف فى الكهوف عظام حيوانية متخالفة الطباع ، بعيدة الائتلاف ، معها بقايا آلات صناعية ، وآثار

بشرية ، مما يثبت أن طوفاناً قادها إلى ذاك المكان ، وجمعها قسراً فأبادها ، فتغلغلت بين طبقات الطين فتحجرت ، وظلت شهادةً على ما كان ، بأمر الخالق تعالى – انتهى – .

وقد سئل مفتى مصر الإمام الشيخ محمد عبده عن تحقيق عموم الطوفان ، وعموم رسالة نوح ، فأجاب بما صورته :

أما القرآن الكريم فلم يرد فيه نص قاطع على عموم الطوفان ، ولا عموم رسالة نوح عليه السلام ، وما ورد من الأحاديث ، على فرض صحة سنده ، فهو آحاد لا يوجب اليقين . والمطلوب فى تقرير مثل هذه الحقائق هو اليقين لا الظن ، إذا عدّ اعتقادها من عقائد الدين وأما المؤرخ ، ومريد الإطلاع ، فله أن يحلصل من الظن ما ترجحه عنده ثقته بالراوى أو المؤرخ ، أو صاحب الرأى . وما يذكره المؤرخون والمفسرون فى هذه المسألة لا يخرج من حد الثقة بالرواية ، أو عدم الثقة بها ، ولا يتخذ دليلاً قطعياً على معتقد دينىّ . أما مسألة عموم الطوفان فى نفسها ، فهى موضوع نزاع بين أهل الأديان ، وأهل النظر فى طبقات الأرض . وموضوع خلاف بين مؤرخى الأمم : فأهل الكتاب ، وعلماء الأمة الإسلامية على أن الطوفان كان عاماً لكل الأرض ، ووافقهم على ذلك كثير من أهل النظر ، واحتجوا على رأيهم بوجود بعض الأصداف والأسماك المتحجرة فى أعالى الجبال ، لأن هذه الأشياء مما لا يتكون إلا فى البحر ، فظهورها فى رؤوس الجبال على أن الماء صعد إليها مرة من المرات ، وأن يكون ذلك حتى يكون قد عمّ الأرض . ويزعم غالب أهل النظر من المتأخرين أن الطوفان لم يكن عاماً ، ولهم على ذلك شواهد يطول شرحها. غير أنه لا يجوز لشخص مسلم أن ينكر قضية أن الطوفان كان عاماً ، لمجرد حكايات عن أهل الصين ، أو لمجرد احتمال التأويل فى آيات الكتاب العزيز . بل على كل من يعتقد بالدين ، ألا ينفى شيئاً مما يدل على ظاهر الآيات والأحاديث التى صح سندها ، وينصرف عنها إلى التأويل ، إلا بدليل عقلى يقطع بأن الظاهر غير مراد ، والوصول إلى ذلك فى مثل هذه المسألة يحتاج إلى بحث طويل ، وعناء شديد ، وعلم غزير فى طبقات الأرض ، وما تحتوى عليه ، وذلك يتوقف على علوم شتى ، نقلية وعقلية . ومن هدى برأيه بدون علم يقينىّ ، فهو مجازف ، ولا يسمع له قول ، ولا يسمح له ببث جهالاته ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

واستظهر بعضهم أن الطوفان كان عاماً ، إذ لم يكن العمران قائماً إلا بقوم نوح ، فكان عاماً لهم ، وإن كان من جهةٍ خاصاً بهم ، إذ ليس ثم غيرهم ، قال :

هبط آدم إلى الأرض ، وهو ليس بأمة إذا مضت عليها قرون ولدت أمماً ، بل هو واحد تمضى عليه السنون ، بل القرون ، ونموّ عشيرته لا يكاد يكون إلا كما يتقاضى الظل قليلاً قليلاً . من آدم إلى نوح ثمانية آباء . فإن كان ثمانية آباء يعطون من الذرية أضعافاً وآلافاً ، حتى يطؤوا وجه الأرض بالأقدام ، وينشروا العمران فى تلك الأيام ، فتلك قضية من أعظم ما يذكره التاريخ أعجوبة للعالين ؟ أما تلك الجبال التى وجدت فوقها عظام الأسماك ، فإن كانت مما وصل إليه الطوفان ، من المكان الخاص الذى سبق به البيان ، فلا برهان . وإن كانت فى غير ذلك المكان ، فإن لم يكن وضعها إنسان ، كما وجدها إنسان ، كان نقل الجوارح والكواسر لتلك العظام ، إلى تلك الجبال مما يسوغه الإمكان . بهذا وبغيره مما لا يغيب عن الأفهام ، تعلم أن الطوفان خاصّ عامّ : خاصّ بمكان ، عامّ سائر المكان – والله أعلم .

٩)تقرير حقيقة ربانية وهى "أن العاقبة للمتقين" .

فى قوله تعالى: (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك فاصبر إن العاقبة للمتقين) .

١٠) فى قوله تعالى: (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ..) [الآيات ٦٩] .

فوائد :

قال بعض المفسرين : لهذه الآيات ثمرات : وهى أن حصول الولد المخصص بالفضل نعمة ، وهلاك العاصى نعمة ، لأن البشرى قد فُسرت بولادة إسحاق ، كما فى آخر الآية ، وهى (فبشرناها بإسحاق ..) الخ وفُسرت بهلاك قوم لوط .

ومنها : استحباب نزول البشر على البشر : لأن الملائكة أرسلهم الله بذلك .

ومنها : أنه يستحب للمبشّر تلقى ذلك الطاعة ، شكراً لله تعالى على ما بُشر به .

وحكى الأصمّ أنهم جاؤوه فى أرض يعمل فيها ، فلما فرغ غرز سبحانه ، وصلى ركعتين .

ومنها : أن السلام مشروع ، وأنه ينبغى أن يكون الردّ أفضل ، لقول إبراهيم : (سلام) بالرفع ، كما تقدم سره .

ومنها : مشروعية الضيافة ، والمبادرة إليها ، واستحباب مبادرة الضيف بالأكل منها .

ومنها : استحباب خدمة الضيف ، ولو للمرأة ، لقول مجاهد : وامرأته قائمة – أى فى خدمة أضياف إبراهيم . قال فى (الوجيز) : وكن لا يحتجبن ، كعادة العرب ونازلة البوادى ، أو كانت عجوزاً ، وخدمة الضيفان من مكارم الأخلاق .

ومنها : جواز مراجعة المرأة الأجانب فى القول ، وأن صوتها ليس بعورة . كذا فى (الإكليل) .

ومنها : أن امرأة الرجل من أهل بيته ، فيكون أزواجه عليه الصلاة والسلام من أهل بيته .

١١) أن تنازع رجال المصالح وأضرابهم مع المصلحين والدعاة : أمر متوقع ، بل واقع بالفعل .

يقول تعالى (قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحكيم الرشيد) [الآية ٨٧] .

١٢) أن الطغيان والتبعية لغير الله تعالى : سببان للحرمان من التقدم والنصر .

فى مثل قوله تعالى (ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير * ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون إله من أولياء ثم لا تنصرون) .

١٣) أنه لا ولى ولا نصير من دون الله .

يقول تعالى (وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون) [الآية ١١٣] .

أى : إن كنتم طغاة ، أو أتباعاً أولاء لغير الله تعالى .

١٤) لذلك فى قوله تعالى :

(ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكن من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون) [الآية ١١٣] .

"ولا تركنوا إلى الذين ظلموا" أى أنفسهم بالشرك والمعاصى . أى : لا تسكنوا إليهم . ولا تطمئنوا إليهم ، لما يفضى الركون من الرضا بشركهم وتقويتهم ، وتوهين جانب الحق . "فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء" أى أنصار يمنعون عذابه عنكم بركونكم إليهم . "ثم لا تنصرون" أى لا تمتنعون مما يراد بكم . والقصد تبعيد المؤمنين عن موادّة المشركين المحادّين لله ولرسوله ، والثقة بهم ، وهم أعظم عقبة فى الصدّ عن سبيل الله ، لأن ذلك ينافى الإيمان(٢) .

قيل : الآية أبلغ ما يتصور فى النهى عن الظالم ، والتهديد عليه ، لأن هذا الوعيد الشديد إذا كان فيمن يركن إلى أهله ، فكيف بمن ينغمس فى حمأته ؟ .

تنبيه :

قال بعض المفسرين اليمانين : الآية صريحة بأن الركون إلى الظلمة محرّم وكبيرة ، لأنه تعالى توعد بالنار . ولكن ما هو والركون الذى أراده تعالى ؟ قلنا : فى ذلك وجوه ؟

فروى عن ابن عباس والأصمّ أن المعنى : لا تميلوا إلى الظلمة فى شئ من دينكم .

وقيل : ترضوا بأعمالهم – عن أبى العالية – .

وقيل : تلحنوا بالمشركين – عن قتادة – .
وقيل : تداهنوا الظلمة – عن السدّىّ وابن زيد .
وقيل : الدخول معهم فى ظلمهم ، وإظهار الرضا بفعلهم ، وإظهار موالاتهم . فأما إذا دخل عليهم لدفع شرهم ، فيجوز ، لأنه تعالى أمر بالرفق فى مخالطة الكفار ، والظلمة أولى .
قال الزمشخرىّ : النهى يتناول الانحطاط فى هواهم ، والانقطاع إليهم ، ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم ، والرضا بأعمالهم ، والتشبه بهم ، والتزّيى يزيهم ، ومدّ العين إلى زهرتهم ، وذكرهم بما فيه تعظيم لهم . وتأمل قوله : (ولا تركنوا) فإن الركون هو الميل اليسير . وقوله : (إلى الذين ظلموا) أى إلى الذين وجد منهم الظلم ، ولم يقل : إلى الضالين .
وحكى أن الموفق صلى خلف الإمام ، فقرأ بهذه الآية ، فغشى عليه، فلما أفاق قيل له ، فقال : هذا فيمن ركن إلى من ظلم ، فكيف بالظالم ؟ انتهى .
قال اليمانى : قد وسع العلماء فى ذلك وشدّدوا ، والحالات تختلف ، والأعمال بالنيات ، والتفصيل أولى ، فإن كانت المخالطة لدفع منكر ، أو استعانة عليه ، أو رجاء تركهم الظالم ، أو استكفاء شرورهم فلا حرج فى ذلك ، وربما وجب . وإن كان لإيناسهم وإقرارهم فلا
١٥) فى قوله تعالى :
(وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) [الآية ١١٤] .
"وأقم الصلاة طرفى النهار" أى غدوة وعشية "وزلفاً من الليل" أى وساعات منه ، وهى ساعاته القريبة من آخر النهار(٢) .
والآية كقوله تعالى :(أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرءان الفجر) [الإسراء ٧٨] .
"إن الحسنات" أى التى من جملتها ، بل عمدتها ، ما أمرت به من الصلوات "يذهبن السيآت" أى التى فلما يخلو منها البشر ، أى يكفرنها . "ذلك" أى إقامة الصلوات فى الأوقات المذكورة ، "ذكرى للذاكرين" أى ذكرى له تعالى ، وإحضار للقلب معه ، وتصفية من كدورات اللهو والنسيان لعظمته .
وقد روى عن ابن مسعود رضى الله عنه ؛ أن رجلاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! إنى عالجت امرأة فى أقصى المدينة ، وإنى أصبت منها ما دون أن أمسها ، وأنا هذا . فاقض فىّ ما شئت ! فقال له عمر رضى الله عنه : لقد سترك الله تعالى لو سترت على نفسك . قال فلم يردّ النبى صلى الله عليه وسلم شيئاً : فقام الرجل ، فانطلق فأتبعه النبى صلى الله عليه وسلم رجلاً فدعاه ، وتلا عليه هذه الآية (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يُذهبن السيئات) إلخ .
فقال رجل من القوم : يا رسول الله ! هذا له خاصة ؟ قال : بل للناس كافة .
وفى رواية عن أبى أمامة قال له صلى الله عليه وسلم : أتممت الوضوء وصليت معنا ؟ قال : نعم . قال : فإنك من خطيئتك كما ولدتك أمك ، فلا تعد . وقرأ الآية(١٩) .
وفى رواية : فنزلت الآية ، والمراد بالنزول شمولها ، بنزولها المتقدم ، لما وقع ، لأنها كانت سبباً فى النزول – كما بيناه غير مرة – .
وفى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من درنه شئ ؟ قالوا : لا . قال : فذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بها الخطايا(٢٠) .
وللإمام أحمد عن معاذ ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن .

وله – كذلك – عن أبى ذر مرفوعاً (إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها) قلت : يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال (هى أفضل الحسنات) أى : فالحسنات مثل الصلاة والذكر والصدقة والاستغفار ، ونحو ذلك من أعمال البرّ .

لطيفة :

أشار الفاشانىّ عليه الرحمة ، إلى سر الصلوات الخمس فى أوقاتها بما يجدر الوقوف عليه ، فقال :

لما كانت الحواس شواغل تشغل القلب بما يرد عليه من الهيئات الجسمانية ،وتجذبه عن الحضرة الرحمانية ، وتحجبه عن النور والحضور، بالإعراض عن جناب القدس ، والتوجه إلى معدن الرجس ، وتبدله الوحشة بالأنس ، والكدورة بالصفاء – فرضت خمس صلوات ، يتفرغ فيها السيد للحضور ، ويسد أبواب الحواس ، لئلا يرد على القلب شاغل يشمله ، ويفتح باب القلب إلى الله تعالى بالتوجه والنية ، لوصول مدد النور ، ويجمع همة عن التفرق ، ويستأنس بربه عن التوحش ، مع اتحاد الوجهة ، وحصول الجمعية ، فتكون تلك الصلوات خمسة أبواب مفتوحة للقلب ، على جناب الرب ، يدخل عليه بها النور بإزاء تلك الخمسة المفتوحة إلى جانب الغرور ، وداراً للعين الغرور ، التى تدخل بها الظلمة ليذهب النور الوارد آثار ظلماتها ، ويكسح غبار كدوراتها . وهذا معنى قوله : (إن الحسنات يذهبن السيئات) :

وقد ورد فى الحديث(٢١) (إن الصلاة إلى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر) وأمر بإقامتها طرفى النهار ، لينسحب حكمها ببقاء الجمعية ، واستيلاء الهيأة النورية ، فى أوله إلى سائر الأوقات ، فعسى أن يكون من الذين هم على صلاتهم دائمون ، لدوام ذلك الحضور ، وبقاء ذلك النور ، ويكسح ويزيل فى آخره ما حصل فى سائر الأوقات من التفرقة والكدورة . ولما كانت القوى الطبيعية المدبرة لأمر الغذاء ، سلطانها فى الليل ، وهى تجذب النفس إلى تدبير البدن بالنوم عن عالمها الروحانىّ ، وتحجزها عن شأنها الخاص بها ، الذى هو مطالعة عالم القدس يشغلها باستعمال آلات الغذاء ، لعمارة الجسد ، فتسلبها للطاقة ، وتكدرها بالغشاوة – احتيج إلى تلطيفها وتصفيتها باليقظة ، وتنويرها بالصلاة ، فقال : (وزلفاً من الليل) انتهى .

١٦) ان اختلاف الأمم فى العقيدة أمر طبيعى مثل اختلافهم فى التكوين ، وأن ذلك من تقدير الله تعالى

قال تعالى: (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحد ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) [١١٨ ، ١١٩] .

ثاني عشر : مصادر المفاتيح و هوامش البحث

١– أنظر : السخاوى .. جمال القراء ٣٦/١
الفيروزابادى .. بصائر ذوى التمييز (سورة هود)
الزركشى .. البرهان (النوع ١٤)
الجمل .. الفتوحات الإلهية (تفسير هود)
٢– القاسمى .. محاسن التأويل (تفسير هود)
٣– الزركشى .. البرهان (النوع ١٤)
٤– أنظر : مكى بن أبى طالب .. التبصرة ص ٢٢٢
السخاوى .. جمال القراء ٢٠٤/١
الفيروزابادى .. بصائر (سورة هود)
الآلوس .. روح المعانى (تفسير هود)
٥– سيد قطب .. فى ظلال القرآن (تفسير هود)

٦- الدرامى .. كتاب : فضائل القرآن ،
باب : فضائل الأنعام والسور.
٧- قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب .
٨- القرطبى .. الجامع لأحكام القرآن (تفسير هود)
٩- الآلوس .. روح المعانى (تفسير هود)
١٠- رشيد رضا .. تفسير المنار (تفسير هود)
١١- أنظر : .. روح المعانى (" ")
رشيد رضا .. تفسير المنار (" ")
المراغى .. تفسير المراغى (" ")
١٢- ففى يونس : من التفصيل – فى مواجة المشركين : فى التوحيد ، والقرآن ، والرسالة : ما أجمل فى هود .
وفى هود : من التفصيل – فى قصص المرسلين – ما أجمل فى يونس .
١٣- إقرأ الآيات ١-٢ ، ١٣-١٤ ، ٢٥-٢٦ ، ٢٨ ، ٤٥-٤٦ ، ٥٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ١١٣ ، ١٢٣ .
١٤- اقرأ الآيات ٥-٨ ، ١٥-١٦ ، ٥٦-٥٧ ، ٦١ ، ١٠٢ ، ١١١ ، ١١٧-١١٩ .
١٥- سعيد جوى .. الأساس فى التفسير (تفسير هود)
١٦- أنظر : رشيد رضا .. تفسير المنار (تفسير هود)
المراغى .. تفسير المراغى (" ")
سيد قطب .. فى ظلال القرآن (" ")
١٧- أنظر : رشيد رضا .. تفسير المنار (" ")
سيد قطب .. فى ظلال القرآن (" ")
١٨- رواه : البخارى .. ك : التفسير ، باب
سورة هود
١٩- مسلم : ك : التوبة
٢٠- البخارى : ك : مواقيت الصلاة ، باب : الصلوات الخمس كفارة .
٢١- مسلم : كتاب الطهارة .

مفاتيح سورة يوسف

أولاً:اسم السورة

تسمى "سورة يوسف"(١)
وذلك : لاشتمالها على قصته(٢) ، كما أن معظم ما فيها قصته عليه السلام(٣) ، وليس لها اسم سوى ذلك(١)
.

ثانياً : عدد آيات السورة و كلماتها و حروفها

آياتها : (١١١) مائة وإحدى عشرة آية .
كلماتها : (١٧٧٦) ألف وسبعمائة وست وسبعون كلمة .
حروفها : (٧١٦٦) سبعة آلاف ومائة وستة وستون حرفاً

ثالثاً : ترتيب السورة فى المصحف و فى النزول

أ- فى المصحف ٠٠ بعد : سورة "هود" ، وقبل : سورة "الرعد" .
ب- فى الترتيب .. بعد : سورة "هود" ، وقبل : سورة "الحجر" .
لما أرادوا القصص دلهم على أحسن القصص .
فلما أرادوا الحديث دلهم على أحسن الحديث .
فلما أرادوا الذكر دلهم على ذكر الله(٢) .
فتلاه عليهم زماناً .
فقالوا لو ذكرتنا ..!! .
فأنزل الله تعالى (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ٠٠) ؟ [الحديد ١٦] .
كل ذلك : ليؤمنوا(٣) .
وروى مثله سعيد بن جبير(٤) .
ويروى غير ذلك (٨) .

رابعاً : سبب نزول السورة

روى عن سعد بن أبى وقاص قال : أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلاه عليهم زماناً .
فقالوا : لو قصصت علينا . !!
فأنزل الله تعالى هذه السورة .
فتلاه عليهم زماناً .
فقالوا : لو حدثتنا ٠٠ !!

فأنزل الله تعالى (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ..) الآية [الزمر ٢٣] .

ثم الثانية ، التى جعل الله فيهما لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللعصبة المسلمة معه وللدعوة الإسلامية خرجاً ومخرجاً بالهجرة إلى المدينة .

ب- مكان نزول السورة

وبناءً على ما ذكر : فالسورة واحدة من السور التى نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة(١) .

بل نزلت بمكة كلها على خلاف ما ورد بالمصحف الأميرى(١٢) .

خامساً : مكية السورة و مدنيتها

أ- جو نزول السورة

نزلت هذه السورة بعد سورة سورة هود عليه السلام .

ومن المعلوم : أنهما نزلنا بعد موت خديجة وأبى طالب سندا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مواجهته لأذى المشركين .

ومن المعلوم كذلك : أن وفاتهما كانت قبل الهجرة بثلاث سنين .

يعنى أن السورة نزلت فى تلك الفترة الحرجة .. بين عام الحزن بموت أبى طالب وخديجة وبين بيعة العقبة الأولى .

سادساً : فضل السورة

من فضل هذه السورة : أن الله تعالى قد سمى ما فيها "أحسن القصص" من بين سائر الأقاصيص التى ذكرت فى القرآن كله(١٢) .

وذلك :

لأنه ليست فى القرآن قصة تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة، وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله تعالى (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) [يوسف ١١١] .

وقيل : لحسن مجاوزة يوسف عن إخوته ، وصبره على أذاهم ، وعفوه عنهم – بعد الالتقاء بهم – عن .... تعاطوه ، وكرمه فى العفو عنهم ، حتى قال (لا تثريب عليكم اليوم) [يوسف ٩٢] أى : لا تعبير ، ولا توبيخ ، ولا لوم عليكم اليوم(١٢) .

وقيل : لأن فيها : ذكر الأنبياء والصالحين ، والملائكة ، والشياطين ، والجن ، والإنس ، والأنعام ، والطير ، وسير : الملوك والمماليك ، والتجار ، والعلماء ، والجهال ، والرجال ، والنساء وحيلهن ومكرهن ٠٠ وفيها : ذكر التوحيد والفقه والسير وتعبير الرؤيا ، والسياسة والمعاشرة ، وتدبير المعاش وجمل الفوائد التى تصلح للدين والدنيا .

وقيل : لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وسيرهما .

وقيل : لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة .

أنظر إلى يوسف وأبيه وإخوته ، وامرأة العزيز – وقيل : والملك أيضاً أسلم بيوسف وحسن إسلامه – وستعبر الرؤيا السافى ، والشاهد فيما يقال ... !!

ما كان أمر الجميع إلا إلى خير(١٠) .

ولذلك :
روى أن خالد بن معدان قال : سورة يوسف وسورة مريم عليهما السلام : يتفكه بهما أهل الجنة فى الجنة (١٣) .
كما قال ابن عطاء : لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها(١٣).

سابعاً : صلة السورة بما قبلها

المناسبة بين هذه السورة وسورة هود قوية جداً وبيان ذلك(١٤)
١-أن سورة يوسف متممة لما فى هود من قصص الرسل عليهم السلام.
فإذا كان تعالى يقول فى آخر هود (وكلاً نقس عليك من أنباء الرسل) [الآية ١٢٠] .
ففى صدر يوسف يقول كذلك (نحن نقص عليك أحسن القصص) [الآية ٣].
٢- التدليل فى كل منهما على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بالوحى إليه(١٥) .
ففى هود (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ٠٠) .
أى ما كنت تعلم هذه القصة أو السورة .
وفى يوسف (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) .
أى : أحسن القصص الذى نقص عليك .
٣- فى كل منهما ذكر لما لاقاه الأنبياء عليهم السلام من الإيذاء(١٦) .
فإذا كانت سورة هود قد بينت ما لاقاه الأنبياء من الأجانب فى قومهم ..!!
فإن سورة يوسف بينت ما لاقاه نبى الله يوسف عليه السلام من الأقارب(١٦) .
وفى ذلك : من التخفيف والتثبيت لنبينا عليه الصلاة والسلام – الذى لاقى فى التعذيب والتكذيب من الأجانب والأقارب – ما فيه .
٤- ذكر البشارة فيهما
ففى هود (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام)
وهنا بيوسف (فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً) [الآية ٩٦] .
٥- اشتمال السورتين على بيان رحمة الله بالأنبياء .
ففى هود : (فبشرناها بإسحق بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب * قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً إن هذا لشئ عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) [هود ٧٢ ، ٧٣] .
وفى يوسف : حديث طويل عن حال يعقوب – الذى بشرت به – مع أولاده، وما صارت إليه عاقبة أمرهم ؛ مما هو أقوى شاهد على رحمة الله تعالى .
٦- نزول السورتين إثر بعضهما .
فقد جاء عن : ابن عباس ، وجابر بن زيد ٠٠ أن يونس نزلت ، ثم هود ، ثم يوسف(٩) .

ثامناً : هدف السورة

١-إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وذلك :
وذلك :

بقوله تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) [يوسف ٣] .

وبقوله تعالى (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، ما كنت لديهم إذ أجمعوا كيدهم وهم يمكرون) [الآية ١٠٢] .

٢- بيان إعجاز القرآن الكريم

وذلك :

أ- بقوله تعالى (إنا أنزلناه قرآناً عربياً) [الآية ٢] .

وكان القرآن عربياً .. !! ؟

لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعانى التى تقوم بالنقوش .

ولهذا :

أنزل الله تعالى أشرف الكتب ، بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل ، بسفارة أشرف الملائكة ، فى :

أشرف بقاع الأرض . وكان نزوله فى أشرف شهور السنة وهو رمضان ، وبدأ هذا النزول فى أشرف ليالى الزمان ، وهى ليلة القدر.

ب- كما أن فى هذه السورة من ... إعجاز القرآن الشئ البديع .

فقد قال العلماء : إن الله تعالى ذكر أقاصيص الأنبياء فى القرآن وكررها بمعنى واحد فى وجوه مختلفة ، بألفاظ متباينة على درجات البلاغة .

وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها .

فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر ، ولا على معارضة غير المتكرر.

وفى هذا من الإعجاز للمتأمل ما قبله (١٠) .

٣- الإعتبار بقصص الرسل الكلام .

يقول تعالى (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) [الآية ١١١] .

تاسعاً : تقسيم آيات السورة موضوعيا

وهذه السورة تتكون من : مقدمة ، وقصة ، وخاتمة .

فالمقدمة .. عبارة عن : (٣) آيات .

من الآية الأولى حتى نهاية الآية(٣) .

وفيها : الحديث عن القرآن الكريم ، وأنه احتوى أحسن القصص .. بما يشير إلى نفى الشك عنه وإبعاد الريب من ساحته .

وأما القصة .. فهى تستغرق (٩٨) آية

من الآية (٤) حتى نهاية الآية (١٠١) .

وفيها : الحديث عن قصة هذا النبى الكريم كاملة ، بما احتوته من : مشاهد، ودروس تربوية ودعوية .

وأخيراً .. الخاتمة .. وهى عبارة عن (١٠) آيات

من الآية (١٠٢) حتى نهاية السورة الآية (١١١) .

وفيها : الحديث عن القرآن الكريم ، وأنه احتوى قصصاً للعبرة والإتعاظ ، وقد كان فيها الدليل على أنه من عند الله ، وفيه تصديق للكتب السابقة ، وتفصيل وبيان لكل شئ يحتاج إليه البشر ، وفيه الهدى وللرحمة لمن يؤمنون .

فى هذه السورة : أطول قصة فى القرآن الكريم .

وقد افتتحت هذه القصة بثلاث آيات تمهيدية ، فى ذكر القرآن ، وحسن قصصه .

ثم كانت قصة يوسف عليه السلام بعد ذلك .

ثم ختمت السورة بتعقيب على قصة يوسف ، وكان ذلك بإحدى عشرة آية فى الاستدلال بها على ما أنزلها الله تعالى لأجله .

وقد برز فى أنباء سرد هذه القصة الكريمة من الموضوعات الشئ الكثير(١٥) .

الغيرة والحسد بين الإخوة وما ينشأ عن ذلك .

فى مثل قوله تعالى (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم) [يوسف ٩] .

المكر والخديعة

فى مثل قوله تعالى (وجاؤا أباهم عشاءً يبكون) [الآية ١٦] .

الغريزة الجنسية واستجابة بعض الناس لثاثرتها إذا اشتدت .

فى مثل قوله تعالى (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك) [يوسف ٢٣] .

حيل النساء ومكرهن .

فى مثل قوله تعالى (فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئاً وائت كل واحدة منهن سكيناً وقالت أخرج عليهن ..) [الآية ٣١] .

كون النفس أمارة بالسوء .

فى مثل قوله تعالى (إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى) [الآية ٥٣].

أن العفو والصفح والكرم سجية الأنبياء .

فى مثل قوله تعالى (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) [الآية ٩٢] .

ومن ذلك كذلك :

١-تأييد الرسول صلى الله عليه وسلم فى قضيته الكبرى ، حيث لم يكن يعرف شيئاً عن يوسف(١٥) .

يقول تعالى (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) [الآية ١٠٢] .

٢- لفت أنظار العالم إلى التاريخ ، وما فيه من آيات وعبر(١٥) .

فى مثل قوله تعالى (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) [الآية ١٠١] .

٣- بيان بعض طبائع وغرائز الإنسان(١٥) كغريزة حب الولد .

فى مثل قوله تعالى (يوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا) [الآية ٨] .

٤- لفت أنظار العالم إلى الكون ، وما فيه من دلائل تدعوا إلى الإيمان .

فى مثل قوله تعالى (وكأين من آية فى السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) [الآية ١٠٥] .

٥- أن المؤمنين – عادة – هم الأقلية

فى مثل قوله تعالى لنبيه (وما آله الناس – ولو حرصت – بمؤمنين) [الآية ١٠٧] .

٦- تهديد الكفار المعرضين .

فى مثل قوله تعالى (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون) [الآية ١٠٧] .

٧- أن القرآن الكريم جاء : مصدق لما سبقه من الكتب ، ومفصلاً لكل شئ - فلا حاجة إلى بيان بعده - وهدى ورحمة للمؤمنين .
فى مثل قوله تعالى عنه (ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) إلى غير ذلك [الآية ١١١] .

حادى عشر : بعض الدروس المستفادة

هذه السورة الكريمة : زاخرة بالفوائد العظيمة ، الواضحة لكل باحث عن تعاليم الله تعالى فى كتابه الكريم ، وجاء تطبيقها والانتفاع بهديها وثوابها .
ومن هذه الفوائد :
١- أن رؤيا الأنبياء حق .
فهذا يوسف عليه السلام يقول: (يا أبت أنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) .
ثم يقول - بعد فترة من الزمان - فى آخر السورة (يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها لى حقاً)(٢) .
٢- يباح للمسلم أن يحذر أخاه المسلم من يخافه عليه ، ولا يكون ذلك داخلاً فى باب الغيبة(١٢) .
يقول يعقوب ليوسف عليهما السلام (يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً(٢) .
٣- التأكيد على عداوة الشيطان للإنسان .
يقول تعالى (إن الشيطان للإنسان عدو مبين) .
٤- أن الحسد سبب للخطأ والخزى والخذلان)(١٩) .
فقد دفع الحسد إخوة يوسف إلى .
الحقد عليه (إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة) [الآية ٨] .
ثم فعل الخطأ (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً) .
ثم إلى الخزى والندامة (قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين) [الآية ٩١] .
٥- أنه لا راد لقضاء الله مهما اشتد الحرص والحذر(١٩) .
قال (إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) [الآية ١٣] .
ومع ذلك : حدث ليوسف نحواً مما توقع وخاف منه والده مع شدة حرصه عليه .
٦- جواز التسابق والرياضة .
قالوا (يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا) [الآية ١٧] .
قال ابن العربى : المسابقة شرعة فى الشريعة ، وخصلة بديعة ٠٠عون على الحرب ، وقد فعله النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه وتخيله.
فروى أنه سابق عائشة فسبقها ، فلما كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مسابقتها ، فسبقته ، فقال : هذه بتلك .
كما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم سابق بين الغضباء - ناقة النبى صلى الله عليه وسلم - فسُبِقت الغضباء ، وقال "حق على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه(٢٠)" .
والسباق أحكام تراجع فى مظانها.
٧- الصبر مفتاح الفرج(١٩) .
فهذا يعقوب عليه السلام يقول (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) [الآية ١٨] .
ويبصر فعلاً ويستعين بالله ويتوكل عليه .

فيعود إليه يوسف ، ويرد إليه بصره .
ويعتذر إليه أبناؤه ، ويطلبون عفوه واستغفاره لهم (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) [الآية ٩٧] .

وهذا يوسف عليه السلام : يتآمر عليه إخوته ، ويدفعهم الحسد إلى إلقائه فى الحب ، ويحدث له ما يحدث بعد ذلك من امتلاءات ..

ولكنه يصبر عليه ، ويستعين بالله ، ويتوكل عليه فيمكنه الله تعالى فى الأرض.

(وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث) [الآية ٢١] .

(وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء) [الآية ٢٦] .

٨- أن النصر من عند الله – وهو وحده الغالب على أمره .

يقول تعالى (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون) [الآية ٢١].

أى : يقول تعالى للشئ كن فيكون

ومن ذلك : النصر .

(حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء) [الآية ١١٠] .

٩- وجوب اليقين بأن الله خير الحافظين .

قال يعقوب لأبنائه (هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل) [الآية ٦٤] .

ومع هذا أجابهم إلى طلبهم فى إرسال أخيهم معهم اعتماداً على حفظ الله له قائلاً (فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين) [الآية ٦٤] .

روى أنه لما قال يعقوب (فالله خير حافظاً) قال الله تعالى : وعزتى وجلالى لأردن عليك ابنيك كلاهما بعد ما توكلت على"(١٢) .

١٠- وجوب تفويض الأمر لله تعالى ، والتوكل عليه .

يقول يعقوب مفوضاً أمره لله (إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون)(٣) .

١١-وجوب التبرؤ من الشرك

يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (قل هذه سبيلى ادعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين) [الآية ١٠٨] .

١٢- أن التقوى والصبر : من علامات الإحسان .

يقول تعالى (أنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) [الآية ٩٠] .

١٣- أن الله تعالى : لا يضيع أجر المحسنين فى الدنيا ، وفى الآخرة يكون لهم الجزاء الأوفى .

يقول تعالى (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من يشاء ولأضيع أجر المحسنين * ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) [الآيتان ٥٦ ، ٥٧] .

١٤- وجوب إعلان الإنسان عن مبدأه وعقيدته وتمسكه بذلك .

فهذا يوسف عليه السلام يعلن عن ذلك وهو فى السجن (أنى تركت ملة قوم لا يؤمنون الله وهم بالآخرة كافرون * واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب) [الآيتان ٣٧ ، ٣٨] .

وهذا محمد صلى الله عليه وسلم يقول له ربه (قل هذه سبيلى وادعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعت) [الآية ١٠٨] .

١٥- الدعاء .... على الإسلام ، واللحاق بالصالحين .

فهذا يوسف عليه السلام يدعو ربه قائلاً (فاطر السموات والأرض ائت – لى فى الدنيا والآخرة تؤدى مسلماً والحقنى بالصالحين) [الآية ١٠١] .

١٦- أن اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى كبيرة من الكبائر(١٢) .

يقول تعالى (ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) [الآية ٨٧] .

١٧- أن عذاب الله للمجرمين : لا يرده عنهم أحد .

قال تعالى (ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) [الآية ١١٠] .

١٨- أن الخيرية ليست دائماً فى الكثرة .

يقول تعالى (ولكن أكثر الناس لا يشركون) [الآية ٣٨] .

ويقول تعالى (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) [الآية ١٠٢] .

ويقول تعالى (وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) .

وفى الآية الأخيرة : يقول القرطبى(١٢) .

قيل : معناها أنهم يدعون الله ينجيهم من الهلكة ، فإذا أنجاهم ، قال قائلهم ، لولا فلا ، : ما نجونا ، ولولا الكلب لدخل علينا اللص ، ونحو هذا ، فيجعلون نعمة الله منسوبة إلى فلان ، ووقايته منسوبة إلى الكلب .

ثم قال : وقلت : وقد يقع فى هذا كثير عوام المسلمين . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

١٩- وجوب الدعوة إلى الله تعالى ولو كان ذلك داخل السجون والمعتقلات.

إذ قال يوسف وهو فى السجن (يا صاحبى الجسن أأرباب متفرقون غير أم الله الواحد القهار * ما تعبددون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا بالله أمر ألا تعبدوا إلا أباه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) [الآيتان ٣٩ ، ٤٠] .

٢٠-أن خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية عنه : مصدر مشركين وخطر عظيم.

(ورادوته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك) .

إن الخلوة : هى التى أثارت ، وأفضت بها عن الرغبة فى إشباع أنوثتها ، والرجوع إلى هواها وغريزتها ، ومن أجل هذا : حرم الدين خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية وسفرها بغير محرم .

٢١- أن كيد النساء أشد ضرراً وإيذاءً للصالحين من غياهب السجون .

إذ قال يوسف هروباً منهن (رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه) [الآية ٣٣] .

٢٢- رد ما نسبه البعض زوراً إلى سيدنا يوسف عليه السلام .

وذلك : حيث زعم البعض أن يوسف عليه السلام قد هم بمقارفة فاحشة الزنى مع امرأة العزيز .

وهذا من الخرافات والأباطيل ، التى تمجها بالآذان ، وتردها العقول والأذهان .

ومن ثنايا آيات السورة نجد على كذب ما زعموا الدليل والبرهان(٢٢) .

أولاً : امتناع يوسف عليه السلام عن مطاوعتها حين دعته .

يقول تعالى (وقالت هيت لك !! قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون) [الآية ٢٣] .

ثانياً : فراره منها بعد أن غلقت الأبواب ، ولو هم بها لما فر منها .

يقول تعالى (واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر) .

أى : فتسابقا ، فأدركته قبل أن يخرج ، فأمسكت به ، فشقت قميصه من خلفه.

ثالثاً : تفضيله السجن على الفاحشة .

(قال السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه) [الآية ٣٣] .

رابعاً : ظهور الدلائل البينات للجميع على براءته .

قال تعالى (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات (سجننه حتى حين) [الآية ٣٥].
خامساً : عدم قبول يوسف الخروج من السجن حتى تبرأ ساحته من التهم .
(فلما جاء الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم) [الآية ٥٠] .
سادساً : تضرع يوسف إلى الله طلباً للنجاة من كيدهن .
يقول (وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين * فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم) [الآيتان ٣٣ ، ٣٤] .
سابعاً : ثناء الله تعالى عليه فى أماكن عديدة من السورة .
قال تعالى (آتينا ، حكماً وعلماً) [الآية ٢٢] .
وقال تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) [الآية ٢٤] .
وقال تعالى (إنه من عبادنا المخلصين)
ثامناً : شهادة الطفل الذى أنطقه الله تعالى وهو فى المهد لتبرئته .
قال تعالى (وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين * وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) [الآيتان ٢٦ ، ٢٧] .
تاسعاً : الاعتراف الصريح الواضح من النسوة بعفته وبراءته .
قال الملك للنسوة (ما خطبكن إذ راوتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء) [الآية ٥١] .
عاشراً : اعتراف امرأة العزيز ببراءته .
مرة أمام النسوة (قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين) [الآية ٣٢] .
ومرة أمام الملك (قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) [الآية ٣٢] .

٢٣- أى العفة والأمانة والاستقامة : مصدر خير وبركة لمن تحلى بها(٢٢).
وذلك واضح فى قصة يوسف عليه السلام بجلاء .
٢٤- أن السورة كشفت عما يدور فى قصور بعض الحكام وعلية القوم من جو الانحرام والظلم .
٢٥- أن مصر بلد زراعى ويجب تشجيع الزراعة فيها ، وأن خيرها يكفى أهلها ، حتى ولو حدثت أزمات ، ما دامت هناك : حكمة فى سياسة المور ، وعدالة فى توزيع المنتجات .
قال (تزرعون سبع سنين دأباً) [الآية ٧٤] .
٢٦- الدلالة على أفضل طرق تخزين المحاصيل .
(فما حصدتم فذروه ، فى سنبله) [الآية ٤٧] .
وذلك لئلا يتسوس ، وليكون أبقى ، وهكذا – كما يقول القرطبى – الأمر فى ديار مصر .
٢٧- وجوب الاقتصاد فى النفقات
قال تعالى (إلا قليلاً ما تأكلون) [الآية ٤٧] .
وإذا كان هذا الأمر لعامة الرعية هكذا ..!!
فهو لولاة الأمر آكد وأوجب .
٢٨- أن النقم والابتلاء : قد يكون ذريعة لكثير من النعم .
ففى بداية قصة يوسف : أحداث كلها أفراح .

وفى نهايتها – وتعقيباً عليها – كلها أفراح(٢١) .

١- أنظر : السخاوى ..جمال القراء ٣٦/١
الفيروزابادى .. بصائر ذوى التمييز (سورة يوسف)
البقاعى .. نظم الدرر (" ")
القاسمى ..محاسن التأويل (" ")
٢- الفيروزابادى .. (مصدر سابق)
٣- القاسمى ..(مصدر سابق)
٤- أنظر : مكى بن أبى طالب.. التبصرة ص ٢٢٧
السخاوى .. جمال القراء ٢٠٤/١
الفيروزابادى .. بصائر ذوى التمييز (سورة يوسف)
الآلوس .. روح المعانى (" ")
نثر المرجان ١٨٩/٣
٥- ابن كثير .. تفسير القرآن العظيم (تفسير سورة يوسف)
٦- أنظر : الواحدى .. أسباب النزول ص ١٥٥
القرطبى .. الجامع لأحكام القرآن (تفسير سورة يوسف)
ابن كثير .. (مصدر سابق)
الآلوس .. (مصدر سابق)
٧- أنظر : الفخر الرازى .. التفسير الكبير (تفسير سورة يوسف)
الجمل .. الفتوحات الإلهية (" " ")
٨- من أراد التوسع : فعليه بالمصادر المشار إليها ، وغيرها .
٩- أنظر : الشنوطى .٠ الاتقان فى علوم القرآن (النوع الأول)
الآلوس .. روح المعانى (تفسير سورة يوسف)
١٠- أنظر : القرطبى .. (مصدر سابق)
السيوطى .. الاتقان (النوع الأول)
١١- أنظر : رشيد رضا .. تفسير المنار (تفسير سورة يوسف)
سيد قطب .. فى ظلال القرآن (" " ")
١٢- القرطبى ..الجامع لأحكام القرآن (سورة يوسف..تفسير
الآية ٣ وتفسير الآية ٩٢)
١٣- البغوى .. معالم التنزيل (تفسير سورة يوسف)
١٤- أنظر : الآلوس .. روح المعانى (" " ")
رشيد رضا .. تفسير المنار (" " ")
١٥- رشيد رضا .. (مصدر سابق)
١٦- الآلوس .. (مصدر سابق)
١٧- أنظر : القرطبى .. (مصدر سابق)
الشوكانى .. فى فتح القدير (تفسير سورة يوسف)

١٨- أنظر : سعيد قطب .. فى ظلال القرآن (" " ")
سعيد حوى .. الأساس فى التفسير (" " ")
د/ عبد الحى الفرماوى سورة يوسف
(مشاهد ودروس)
١٩- الفخر الرازى .. التفسير الكبير (تفسير سورة يوسف)
٢٠- ابن العربى .. أحكام القرآن (" " ")
٢١- المراغى .. تفسير المراغى (تفسير سورة يوسف)
٢٢- الصابونى .. إيجاز البيان فى مقاصد ص ٥٠ وما بعدها
سور القرآن (بتصرف يسير)

فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

مفاتيح سورة الرعد

أولاً:اسم السورة

تسمى هذه السورة باسم هذه الظاهرة الكونية التى ورد ذكرها فى السورة ، وهى : الرعد(١) .
وقد ورد ذكر الرعد فى القرآن الكريم : مرتين .
الأولى : فى سورة البقرة .
بقوله تعالى (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ٠٠) [البقرة ١٩] .
الثانية : فى هذه السورة .
بقوله تعالى : (ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ٠٠٠) [الرعد ١٣].
ولعل سر تسمية هذه السورة بما ورد فى هذه الآية : لبيانها كمال قدرته تعالى(٢) ، ولفتا للأنظار إلى هذا الأمر البديع العجيب ، وهو تسبيح الرعد بحمده تعالى ، عن طريق صوته المزعج المخيف القارع ، المنذر بغضب الله تعالى ، المذكر بعذابه .
ولذلك : كان النبى صلى الله عليه وسلم ، إذا سمع صوت الرعد الشديد ، قال :
"اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك"(٣) .

ثانياً : عدد آيات السورة و كلماتها و حروفها

آياتها : (٤٣) ثلاث وأربعون آية .
كلماتها : (٨٦٥) ثمانمائة وخمس وستون كلمة .
حروفها : (٦٤٣٤) ستة آلاف وأربعمائة وأربعة وثلاثون حرفاً

ثالثاً : ترتيب السورة فى المصحف و فى النزول

١- فى المصحف .. بعد : سورة "يوسف" ، وقبل سورة "إبراهيم" .
٢- فى النزول .. بعد : سورة "محمد" ، وقبل سورة "الرحمن" .

رابعاً : سبب نزول السورة

لا يوجد

خامساً : مكية السورة و مدنيتها

اختلف حول مكية هذه السورة ومدنيتها على أقوال(١) :

الأول : أنها مكية .

الثانى : أنها مدنية ، إلا قوله تعالى (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتى وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد)(٢) [الآية ٣١] .

الثالث : أن السورة من أولها إلى قوله تعالى (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو ...) (٢) مدنى ، وباقيها : مكى .

والذى يجمع به بين الاختلاف : أنها مكية إلا آيات منها(٣)

سادساً : فضل السورة

جاء فى فضل هذه السورة : ما أخرجه ابن أبى شيبة ، والمروزى فى الجنائز "أنه كان يستحب إذا حضر الميت : أن يُقرأ عنده سورة الرعد" ؛ فإن ذلك يخفف عن الميت ، وأنه أهون لقبضه ، وأيسر لشأنه(٥) .

سابعاً : صلة السورة بما قبلها

ذكر العلماء فى تناسب سورة الرعد مع سورة يوسف ألواناً ، نذكر منها(٦) .

١) إذا كان تعالى أجمل فى يوسف الآيات السماوية والأرضية فى قوله تعالى (وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) [يوسف ١٠٥] .

فقد فصل فى الرعد هذه الدلائل – فى الكثير من آياتها – أتم تفصيل .

٢) إذا كان تعالى أشار فى يوسف إلى أدلة التوحيد بقوله تعالى (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار)(١) .

٣) إذا كان تعالى ختم يوسف بوصف القرآن قائلاً (ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) [يوسف ١١١] .

فقد افتتح سبحانه الرعد بوصف القرآن – كذلك – قائلاً (تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) [الرعد ١] .

٤) أنه قد ذكر فى كلتا السورتين أخبار الماضين مع رسلهم ، وأنهم لاقوا منهم ما لاقوه ، وأن نصر الله كان لرسله وللمؤمنين .

وفى ذلك من التثبيت والتأييد لقلب النبى صلى الله عليه وسلم ما فيه .

ثامناً : هدف السورة

تهدف السورة إلى ما تهدف إليه السور المكية من سور القرآن الكريم .
فهى تهدف إلى ترسيخ أصول العقيدة الإسلامية ، من :
١) الإيمان بالله تعالى وتوحيده .
٢) الإيمان بالرسل مع بيان مهمتهم .
٣) الإيمان بالملائكة مع الإشارة إلى بعض وظائفهم .
٤) الإيمان بالقرآن الكريم وأنه موحى به .
٥) الإيمان باليوم الآخر وما فيه نعيم وعذاب .
٦) الإيمان بالقضاء والقدر .
كل ذلك :
عن طريق : توضيح وعرض وشرح الدلائل الكونية التى جعلها الله تعالى فى السماء والأرض والأنفس .
وكذلك عن طريق : ضرب الأمثال للخير والشر ، وللمهتدين والضالين ، وعرض بعض مشاهد القيامة ، وصور النعيم والعذاب فيها ، ثم المرور على مصارع المكذبين الغابرين ، وبيان سنن الله فيهم .
وثالثاً عن طريق : بيان مآل المؤمنين بهذه العقيدة العاملين فى ظلالها ، المتعبدين بهديها ، ومصير الرافضين – المتكبرين عن الإذعان – لها

تاسعاً : تقسيم آيات السورة موضوعيا

هذه السورة تتكون من : مقدمة ، وثلاث فقرات(٨) أما المقدمة : فهى آية واحدة .
الآية الأولى فقط . وفيها : الإشارة إلى آيات تلك السورة ، وأن القرآن كله حق منزل من عند الله تعالى ، وأن الأقلية هى التى تؤمن به .
والفقرة الأولى .. عبارة عن (٦) آيات
من الآية (٢) حتى نهاية الآية (٧) .
وفيها : تعريف على الله تعالى بلفت أنظارنا إلى أفعاله سبحانه – ومظاهر قدرته ، وتعديد مواقف للكافرين تتنافى مع معرفة الله عز وجل .
وهو بذلك : يضع أساساً فى إقامة الحجة على منكرى البعث ، وعلى المستعجلين بالعذاب ، وعلى مقترحى الآيات .
والفقرة الثانية .. عبارة عنت (١٨) آية
من الآية (٨) حتى نهاية الآية (٢٥) .
وفيه : الحديث عن الله ، وعلمه المحيط ، وعظمته ، وعنايته بالإنسان ، وقانونه العادل فى خلقه ، وكذلك : الحديث عن مظاهر من قدرته وعظمته وانتقامه ، ثم ضرب الأمثال .. الخ ، كل ذلك يوصفنا إلى ما أعد للمسلمين له ، وما أعد للرافضين هداه ، ثم ليقارن بين الذين علموا الحق واستجابوا له ، وبين الذين رفضوه ولم يستجيبوا له .
والفقرة الثالثة والأخيرة .. وهى عبارة عن(٢٨) آية
من الآية (٢٦) إلى نهاية الآية (٤٣) الأخيرة فى السورة .
وفيه : التذكير بأن الله هو الذى يوسع الرزق وهو الذى يضيقه ، لما له من الحكمة والعدل التام فى ذلك .
وكذلك : عرض أفعال الكافرين وحججهم والرد عليها ، والتفصيل لظاهرة الهداية والضلال .

عاشراً : أبرز موضوعات السورة

إن موضوعات سورة الرعد : هى نفس موضوعات السور المكية .

ولكن – كما سبق أن ذكرنا – كل سورة من سور القرآن الكريم – مكية ومدنية – لها جوها الخاص وطابعها المميز وأسلوبها الخاص .

وهذه السورة تنفرد فى عرض موضوعاتها والتدليل عليها بجو خاص وأسلوب مميز ، لا يشعر به إلا من يعيش فى رحابها ، ...بصره وبصيرته فى آياتها وإيحاءاتها .

وهى تركز على هذه الموضوعات(٨) .

١) التدليل على أصول العقيدة .

تارة : بآيات القدرة فى الكون الهائل من سبحانه وأرضه .

وذلك فى مثل :

قوله تعالى (الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون) [الرعد ٢] .

وقوله تعالى (وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) [الرعد ٣] .

وتارة أخرى : بآيات القدرة فى الأحياء ، والمشاعر ، والأنفس .

وذلك فى مثل :

قوله تعالى (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شئ عنده بمقدار) [الرعد ٨] .

وقوله تعالى (عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال * سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) [الرعد ٩ ، ١٠] .

وقوله تعالى (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) [الرعد ١] .

وتارة ثالثة يدلل : بآيات القدرة التى تتداخل فيها مناظر الطبيعة ومظاهر القدرة مع مشاعر النفس الإنسانية .

وذلك فى مثل :

قوله تعالى (هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب الثقال * ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيتفه ويرسل الصواعق فيصيب به من يشاء وهم يجالدون فى الله وهو شديد المحال * له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال * ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال) [الرعد ١٢-١٥] .

وتارة رابعة : يضرب الأمثال .

وذلك فى مثل :

قوله تعالى (قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شئ وهو الواحد القهار) [الرعد ١٦] .

وقوله تعالى (أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها ٠٠٠) إلى قوله تعالى (كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال) [الرعد ١٧] .

وتارة خامسة : بالنعى على المنكرين المكذبين وذلك فى مثل :

قوله تعالى (وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا تراباً أئنا لفى خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) [الرعد ٥] .

وقوله تعالى (وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) [الرعد ١٤] .
وقوله تعالى (للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد) [الرعد ١٨] .
وقوله تعالى (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب) [الرعد ٢٧].
وقوله تعالى (ويقول الذين كفروا لست مرسلاً قل كفى بالله بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب) [الرعد ٤٣] .
٢) بيان طبيعة الإيمان وأهله وطبيعة الكفر وأهله ، وصفات كل منهما ، ومصيره .
وتوضح السورة بكل جلاء الفرق بينهما مركزة على النقاط التالية :
أولاً : فى الموقف من قضية الوحى .
وذلك فى مثل :
قوله تعالى (أمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) [الرعد ١٩] .
ويقول المرحوم سيد قطب : إن المقابل لمن يعلم أن ما أنزل إليك من رب كهو والحق ، ليس هو من لا يعلم هذا ، إنما المقابل هو الأعمى ، وهو أسلوب عجيب فى لمس القلوب ، وتجسيم الفروق ، وهو والحق فى الوقت ذاته ، لا مبالغة فيه ولا زيادة ولا تحريف ، فالعمى وحده هو الذى ينشئ الجهل بهذه الحقيقة الكبرى الواضحة التى لا تخفى إلا على أعمى ، والناس إزاء هذه الحقيقة الكبيرة صنفان : مبصرون ، فهم يعلمون ، وعمى ، فهم لا يعلمون ، والعمى : عمى البصيرة ، وانطماس المدارك ، واستغلاق القلوب ، وانطفقاء قبس المعرفة فى الأرواح ، وانفصالها عن مصدر الاشعاع .
فقد كشف الوحى والموقف منه بين المؤمنين به والمنكرين الضالين عنه .
ثانياً : فى الموقف من قضية الوحدانية أو الشرك .
وذلك فى مثل :
قوله تعالى (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض أم بظاهر من القول بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد * لهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق * مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار) [الرعد ٣٣ ، ٣٥] .
فهؤلاء : وحدوا الله فاتقوه .
وهؤلاء : أشركوا بالله وصدوا عن سبيله .
ثالثاً : فى بيان صفات كل فريق منهما وطبيعته .
وذلك فى مثل :
قوله تعالى (إنما يتذكر أولوا الألباب * الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق * والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب * والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرؤن بالحسنة السيئة) [الآيات ١٩-٢٢] .
وقوله تعالى (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاق ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض) [الرعد ٢٥] .
رابعاً : فى بيان مصير كل فريق منهما .
وذلك فى مثل :

قوله تعالى عن المؤمنين (أولئك لهم عقبى الدار * جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) [الرعد ٢٢ ، ٢٣] .
وقوله تعالى عن الكافرين (أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) [الرعد ٢٥] .
٣)بيان موقف أهل الكتاب من هذا الدين وموقف منهم
ويأخذ هذا البيان اتجاهه فى توضيح النقاط التالية :
أولاً : انقسامهم بين فرح به ومنكر له .
وذلك فى مثل :
قوله تعالى (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه) [الرعد ٣٦] .
ثانياً : إعلامهم وإعلانهم بمبادئه وأصوله
وذلك فى مثل :
قوله تعالى (قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعوا وإليه مآب* وكذلك أنزلناه حكماً عربياً) [الرعد ٣٦ ، ٣٧] .
ثالثاً : بيان أن ما هم عليه – بعد ظهور هذا الدين – هو الهدى والضلال، الذى يجب مفارقته بالمسارعة فى اعتناق هذا الدين .
وذلك فى مثل :
قوله تعالى (ولئن اتبعت أهوائهم بعد ما جاءت من العلم مالك من الله من ولى ولا واق) [الرعد ٣٧] .
٣) بيان وظيفة الرسل
وذلك فى النقاط التالية :
أولاً : تبليغ الدعوة .
وذلك فى مثل :
قوله تعالى (...إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) [الرعد ٤٠] .
ثانياً : إنذار المكذبين وبشارة المؤمنين
وذلك فى مثل :
قوله تعالى (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) [الرعد ٧] .
وقوله تعالى (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب * الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم لذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب * الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى ولهم حسن مآب) (٣) [الرعد ٢٩] .
ثالثاً : تلقى الآيات لا صنع هذه الآيات
وذلك فى مثل :
قوله تعالى (وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب) [الرعد ٣٨] .
رابعاً : التوكل الدائم على الله
وذلك فى مثل :
قوله تعالى (ويقول الذين كفروا لست رسلاً قل كفى بالله شهيد بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب) [الرعد ٤٣] .
وقوله تعالى (قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب) [الرعد ٣٠].
خامساً : عدم الثأر لنفنسه من معانديه ، لتكفل الله عنه بذلك

وذلك فى مثل
قوله تعالى (ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب)[الرعد ٣٢] .
سادساً : لهم حق الزواج والإنجاب
وذلك فى مثل
قوله تعالى (ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية) [الرعد ٣٨]

حادى عشر : بعض الدروس المستفادة

أن كتاب الله تعالى وما حواه من أحكام وتشريعات لا يناسبه إلا وجوب الإيمان به .
فقد عاب تعالى على من لا يؤمنون بقولهن عقب الحديث عنه (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) [الرعد ١] .
٢) أن آيات القدرة المبثوثة فى الأكوان العليا: يجب اليقين بما توحى به وتدل عليه، وهو لقاء الله تعالى لعلكم بلقاء ربكم توقنون [الرعد : ٢].
٣) أن آيات القدرة المبثوثة فى الأرض ومخلوقات الله : تحتاج إلى التفكر والتعقل وصولاً إلى ما تدل عليه وتؤدى إليه ، من لزوم الإيمان بهذا الدين وأصوله وقواعده .
(إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) [الرعد ٣] .
(ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) [الرعد ٤] .
٤) أن التغيير – أى تغيير – لابد أن يبدأ من الداخل ، أى : من داخل النفس البشرية ، أى : من اعتقادها ، ثم ما يترتب عليه من تغيير فى السلوك والتصرفات الدالة على ما فى الأنفس من سمو أو انحطاط ، من مكارم أو رذائل ، من إيمان أو كفر .
وسواء أكان هذا التغيير من الأفراد أم من الجماعات ، من الحكام أم من المحكومين .. !!
ثم يكون : تعبير الله تعالى .
(إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) [الرعد ١١] .
وهنا : يبرز دور التربية وأثره بجانب التعليم وأهميته .
كما : يبرز دور السلوك والتصرفات وتقويمها بجانب تصحيح النوايا وتوجيهها .
وينبغى أن يلاحظ جيداً : أن تغيير الله لا يكون إلا إذا كانت الرغبة فى التغيير ، وسلوك سبيله ، سمة بارزة ، وعلامة مميزة ، وقوة دافعة للمجتمع كله ، وللقوم بأغلبيتهم .
(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) [الرعد] .
٥) أنه إذا كانت الظواهر الكونية تسبح بحمد الله تعالى (ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته) [الرعد ١٣] بل إذا كان كل شئ يسبح بحمده (وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) [الإسراء ٤٤] .
فأولى بنا : نحن البشر ، أرباب العقول ، أصحاب النعم ، أن لا نفتر لحظة واحدة عن التسبيح بحمده تعالى .
٦) أن ما عليه الكفار والطغاة من أمول ومناصب ومكاسب : لا ينجيهم من سوء الحساب ، ولو افتدوا به أنفسهم .
(والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً لافتدوا به) [الرعد ١٨] .
٧) أن ذكر الله تعالى : مما يريح النفوس ويطمئن القلوب .
(ألا بذكر الله تطمئن القلوب) .
٨) أن على الدعاة إلى الله تعالى : أن يكونوا على أدب كامل فى حق الله تعالى .

ويكون ذلك : بعدم استعجالهم للنتائج والمصائر ، إذ ليس لهم أن يستعجلوا هداية الناس ، ولا أن يستعجلوا وعد الله ووعيده للمهتدين والمكذبين .

وليس لهم – كذلك – أن يقولوا : لقد دعونا كثيراً فلم يستجب لنا إلا القليل ، أو لقد صبرنا طويلاً ، فلم يأخذ الله الظالمين بظلمهم ونحن أحياء .

كل ما عليهم فقط : هو البلاغ .

أما حساب الناس فى الدنيا أو فى الآخرة : فهذا ليس من شأن العبد ، إنما هو من شأن الله .

فينبغى – تأدباً فى حق الله واعتزاماً بالعبودية له – أن يترك له سبحانه ، يفعل ما يشاء ويختار .

(إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) [الرعد ٤٠] .

وهو البلاغ : هو أول .... الجهاد .

بمعنى أنه متى صح البلاغ ، واتجه الدعاه به إلى تبليغ الحقائق الأساسية فى هذا الدين قبل الحقائق الفرعية ، أى متى اتجه إلى تقدير الألوهية والربوبية والحاكمية لله وحده منذ الخطوة الأولى ، واتجه إلى تعبيد الناس لله وحده ، وقدر دينونتهم عليه وخلع الدينونة لغيره ؛ فإن الجاهلية لابد أن تواجه الدعاة إلى الله ، المبلغين التبليغ الصحيح ، بالاعراض والتحدى ، بالإيذاء والمكافرة .

ومن ثم : تجئ موحلة الجهاد فى حينها نتاجاً طبيعياً للتبليغ الصحيح لا محالة (وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً من المجرمين * وكفى بربك هادياً وبصيراً) [الفرقان ٣١] .

٩) أن حياة الناس لا تصلح إلا بأن يتولى قيادتها المبصرون أولوا(١) الألباب(٩) ، الذين يعلمون أن ما أنزل على محمد ، صلى الله عليه وسلم ، هو الحق ، ومن ثم : يوفون لعهد الله على الفطرة ، وبعهد الله على آدم وذريته ، أن يعبدوه وحده ، فيدينوا له وحده ، ولا يتلفوا على غيره ، ولا يتبعوا إلا أمره ونهيه، ومن ثم : يصلون ما أمر اله به أن يوصل ، ويخشون ربهم فيخافون أن يقع منهم ما نهى عنه وما يغضبه ، ويخافون من سوء الحساب ، فيجعلون الآخرة فى حسابهم فى كل خالجة وكل حركة ، ويصبرون على الاستقامة على عهد الله ذاك بكل تكاليف الاستقامة ، ويقيمون الصلاة ، وينفقون مما رزقهم الله سراً وعلانية ، ويدفعون السوء والفساد فى الأرض بالصلاح والإحسان .

وبالتالى : فهى لا تصلح بالعبادات الضالة العمياء ، التى لا تعلم أن ما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم ، هو الحق وحده ، والتى تتبع – من ثم – مناهج أخرى غير منهج الله الذى ارتضاه للصالحين من عباده .

ومن هنا :

فالعلاقة وثيقة بين الفساد الذى يصيب حياة البشر فى هذه الأرض وبن ذلك العمى عن الحق الذى يصيب أولى الأمر والنهى أينما وجدوا عليها .

وكذلك : هى وثيقة بين الصلاح الذى يزين الحياة فى هذه الأرض وبين ذلك العلم .

– من أولى الأمر والنهى ، أينما وجدوا – بأن ما أنزل إلى محمد : صلى الله عليه وسلم من ربه .

قال تعالى (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب الذين يوفون بعهد الله ....)(١) [الرعد ١٩-٢٤] .

ويقول تعالى (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار [الرعد ٢٥].

ثاني عشر : مصادر المفاتيح و هوامش البحث

١- أنظر : السخاوى .. جمال القراء ٣٦/١
القرطبى الجامع لأحكام القرآن تفسير سورة الرعد
الفيروزابادى بصائر ذوى التمييز ٢٦٢/١
القاسمى محاسن التأويل (تفسير سورة الرعد)
٢- القرطبى .. الجامع لأحكام القرآن (تفسير سورة الرعد)
٣- الطبرى .. جامع البيان (تفسير سورة الرعد)
٤- الفيروزابادى .. بصائر ذوى التمييز ٢٦٢/١
٥- أنظر : الحمل .. الفتوحات الإلهية (تفسير سورة الرعد)
الآلوس .. روح المعانى (" " ")
سعيد حوى .. الأساس فى التفسير (" " ")
٦- أنظر : الآلوس .. روح المعانى (تفسير الرعد)
المراغى .. تفسير المراعى (تفسير الرعد)
٧- سعيد حوى .. الأساس فى التفسير (تفسير الرعد)
٨- أنظر : المراغى .. تفسير المراغى (تفسير الرعد)
سيد قطب .. فى ظلال القرآن (" ")
٩- سيد قطب .. فى ظلال القرآن ٢٠٥٦/١٣-٢٠٥٧

فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

مفاتيح سورة إبراهيم

أولاً:اسم السورة

لهذه السورة إسم واحد فقط وهو: إبراهيم

وهو اسم أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام .

وقد سميت بهذا الاسم : لتضمنها قصة إسكان إبراهيم عليه اسلام ولده إسماعيل بواد غير زرع عند بيت الله الحرام ، وشكره لله تعالى على ما أنعم عليه من الولدين إسماعيل وإسحق(١) .

كما اشتملت على دعوات لإبراهيم ، عليه السلام ، تمت بهذه الملة ٠٠ كالحج ، وجعل الكعبة قبلة الصلاة ، مع الدلالة على عظمتها ؛ بحيث صارت من المطالب المهمة للمتفق على غاية الكمال إبراهيم عليه السلام ، وعلى نبوة نبينا عليه أكمل التحيات ، وأفضل التسليمات مع غاية كماله .

وهذا : من أعظم مقاصد القرآن .

أفاد ذلك : المهايمىّ .

ثانياً : عدد آيات السورة و كلماتها و حروفها

آياتها : (٥٢) اثنتان وخمسون آية .

كلماتها : (٨٣١) ثمانمائة وإحدى وثلاثون كلمة .

حروفها : (٦٤٣٤) ستة آلاف وأربعمائة وأربعة وثلاثون حرفاً .

ثالثاً : ترتيب السورة فى المصحف و فى النزول

أ- فى المصحف .. بعد : سورة "الرعد" ، وقبل : سورة "الحجر" .

ب- فى النزول .. بعد : سورة "نوح" ، وقبل : سورة "الأنبياء" .

رابعاً : سبب نزول السورة

خلال التنقيب عن سبب نزول السورة : لم أجد سوى ما ذكره الإمام القرطبى فى تفسيره عن سبب نزول الآية الأولى من السورة .

قال : روى مقسم عن ابن عباس ، قال : كان قوم آمنوا بعيسى بن مريم ، وقوم كفروا به .

فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم : آمن به الذين كفروا بعيسى . وكفر الذين آمنوا بعيسى .

فنزلت هذه الآية (الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد) .

خامساً : مكية السورة و مدنيتها

روى : أن هذه السورة نزلت بمكة كلها .
وهذا : هو ما عليه الجمهور .
وروى : أنها نزلت بمكة إلا آيتين منها ، فقد نزلنا بالمدينة ، فى قتلى بدر من المشركين ، وهما (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار) [إبراهيم ٢٨ ، ٢٩] .
وقيل : نزلت بمكة ، إلا ثلاث آيالت منها ، نزلت بالمدينة ، فى الذين حاربوا الله ورسوله ، وهى (ألم تر إلى الذين بدلوا ...) إلى قوله تعالى (فإن مصيركم إلى النار) [٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠] .
هذا .. وفى تفسير الإمام الآلوسى :
إذا لم يكن فى السورة ما يتصل بالأحكام :
فنزولها بمكة والمدينة سواء ، إذ لا يختلف الغرض فيه إلا أن يكون فيها ناسخ أو منسوخ ؛ فتظهر فائدته .
يعنى : أنه لا يختلف الحال وتظهر ثمرته إلا بما ذكر .
فإن لم يكن ذلك : فليس فيه إلا ضبط زمان النزول ، وكفى به فائدة .

سادساً : فضل السورة

سابعاً : صلة السورة بما قبلها

مناسبة هذه السورة وترابطها مع سورة الرعد قبلها قوى جداً.
ويتضح هذا التناسب والترابط فى النقاط التالية :
١) إذا كان تعالى قد افتتح الرعد بمدح الكتاب العزيز فى قوله تعالى (تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) [الرعد ٢] .
ومبيناً سبحانه بذلك أنه كاف ومغن عما اقترحوه فى قولهم (لولا أنزل عليه آية من ربه) [الرعد ٧] .
فإنه تعالى : قد افتتح هذه السورة بوصف الكتاب العزيز كذلك . بما فيه الإيماء إلى أنه مغن عما يطلبونه من آيات .
وذلك فى قوله تعالى (كتاب أنزل إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد) [إبراهيم ١] .
٢) إذا كانت الرعد قد ختمت بقوله تعالى (ومن عنده علم الكتاب) [الرعد ٤٣] والمراد : وهو سبحانه عنده علم الكتاب .
فإن إبراهيم قد افتتحت بقوله تعالى (كتاب أنزلناه إليك) [إبراهيم ١] .
وفى ذلك : من التناسب بين المطلع والخاتمة ما فيه .
٣) افتتحت السورتان بحرف الألف ، واختتمتا بحرف الباء .

٤) اختتمت السورتان بحرفا الألف والبار

ففى الأولى (ومن عنده علم الكتاب) [الرعد ٤٣] .

وفى هذه (وليذكر أولوا الألباب) [إبراهيم ٥٢] .

٥) إذا كان المولى ذكر فى الرعد إنزال القرآن حكماً عربياً ، فى قوله تعالى (وكذلك أنزلناه حكماً عربياً) [الرعد ٣٧] .

وذلك : دون التصريح بحكمة ذلك .

فإنه تعالى : صرح فى إبراهيم بهدف الحكمة فى قوله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) [إبراهيم ٤] .

٦) إذا كان تعالى – بخصوص الآيات التى طلبها المشركون – أخبر فى الرعد – من جهته تعالى – بأنه ما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذنه فى قوله تعالى (وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله) [الرعد ٣٨] .

فإنه تعالى – بخصوص ذلك – أخبر فى إبراهيم ، ولكن من حرمه الرسول أنفسهم بنفس المقالة فى قوله تعالى (وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله) [إبراهيم ١١] .

٧) إذا كان تعالى فى الرعد أخبر عن قول الحبيب صلى الله عليه وسلم (عليه توكلت) [الرعد ٣٠] .

فإنه تعالى أخبر فى هذه السورة أخبر عن إخوانه من المرسلين قولهم (وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون) [إبراهيم ١٢] .

٨) إذا كان تعالى فى الرعد : قد ضرب الأمثال للحق والباطل .

يقول تعالى (٠٠٠ كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال) [الرعد ١٧] .

فإنه تعالى فى إبراهيم : قد ضرب الأمثال – أيضاً – لذلك .

يقول تعالى (ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء * تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون * ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار) [إبراهيم ٢٤-٢٦] .

٩) إذا كان تعالى فى الرعد : تحدث عن رفع السماوات بغير عمد ، وعن تسخيره الشمس والقمر ، وعن مد الأرض ٠٠ إلى آخر المذكور فى قوله تعالى

(الله الذى السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى ٠٠٠) [الرعد ٢ ، ٣ ، ٤]

وكان ذلك من باب عرض الدلائل والآيات (إن فى ذلك لآيات) .

فإن تعالى فى إبراهيم : تحدث عن نفس الأشياء تقريباً فى قوله تعالى

(الله الذى خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماءً ٠٠٠) [إبراهيم ٣٢-٣٤] .

كما كان ذلك من باب عرض : النعم والهات الإلهية (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) [إبراهيم ٣٤] .

١٠) إذ اكان تعالى قد أشار فى الرعد إلى مكر الكفرة بقوله تعالى (وقد مكر الذين من قبلهم) [الرعد ٤٢] .

فإن تعالى قد تحدث عن ذلك فى إبراهيم بما فيه مزيد الوصف والتوضيح .

اقرأ قوله تعالى (وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) [إبراهيم ٤٦] .

١١) قال السيوطى : ذكر الله تعالى فى الرعد (ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم) [الرعد ٣٢] .

وذلك مجمل فى أربعة مواضع: الرسل،والمستهزئين،وصفة الاستهزاء، ٠٠٠

وقد فصلت هذه فى سورة إبراهيم فى قوله تعالى (ألم يأتكم نبؤ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب .

قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى .

قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين .

قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون * وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون *

وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا .

فأوحى إليهم ربهم لنهلكم الظالمين * ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد *

واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد * من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد * يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ)(١) [إبراهيم ٩-١٧] .

ثامناً : هدف السورة

تهدف هذه السورة إلى ما تهدف إليه السور المكية مما يتصل بترسيخ العقيدة وأصول الدين.

بيد أن هذه السورة تهتم فوق ذلك بإبراز حقائق ثلاث هامة ، فتسلط الأضواء عليها ، ونفلت الأنظار إليها بتركيز شديد ، وهى :

١) وحدة الرسالة التى أرسل بها جميع رسل الله تعالى ، وحدة دعوتهم إلى البشر ، ووقفتهم وقفة واحدة فى مواجهة الجاهلية المكذبة بدين الله على اختلاف الأمكنة والأزمان .

ويبرز سياق السورة هذا الهدف فى معرض فريد فى طريقة الأداء القرآنى.

إذ بعد أن كانت السور السابقة تعرض لصورة توحيد الدعوة والرسالة على لسان كل رسول حينما يقول كلمته لقومه ويمضى .. !!

تأتى هذه السورة : وتتجمع فيها الأجيال من لدن نوح عليه السلام ، وتتجمع الرسل ، ويتلاشى الزمان والمكان .

وتبرز فيها : الحقيقة الكبرى .

حقيقة الرسالة ؛ وهى واحدة .

واعتراضات الجاهلين عليها ، وهى واحدة .

وحقيقة نصر الله للمؤمنين ، وهى واحدة .

وحقيقة استحلاف الله للصالحين ؛ وهى واحدة .

وحقيقة الخيبة والخذلان للمتجبرين ؛ وهى واحدة .

وحقيقة العذاب الذى ينتظرهم هناك ؛ وهى واحدة .

اقرأ معى قوله تعالى فى السورة لتوضيح هذا الهدف

(ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم

قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله

جاءتهم رسلهم بالبينات

فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب .

قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى .

قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين .
قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون .
وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا
فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد
واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ [إبراهيم ٩-١٧] .

٢) بيان نعم الله تعالى على البشر ، .... بادئهاعليهم بالشكر منهم ، ومع ذلك فأكثر الناس يقابلها بالجحود والنكران .
حيث يعود الله تعالى فى السورة نعمه على البشر كافة : مؤمنهم وكافرهم ، صالحهم ، وطالحهم ، برهم وفاجرهم ، طائعهم وعاصيهم .
وإنها لرحمة من الله تعالى وسماحة وفضل : أن يتيح للكافر والفاجر والعاصى نعمه فى هذه الأرض ، كالمؤمن والبار والطائع ، لعلهم يشكرون.
ويعرض هذه النعمة فى :
أ- أضخم .... الكون وأبرزها :
فيقول تعالى (الله الذى خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزق لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار) [إبراهيم ٣٢-٣٤] .
ب- إرسال الرسل للناس .
إذ يقول تعالى (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد) [إبراهيم ١] .
وإرسال الرسل للناس لهذا الغرض : نعمة تفوق ما ذكر من النعم .
جـ- غفران الله تعالى للذنوب بسبب إجابة دعوة الرسل .
يقول تعالى على السنة الرسل مجتمعين (يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم) [إبراهيم ١٠] .
والدعوة لأجل الغفران نعمة تعدل نعمة النور ، وهى قريب منه .
د- إلى غير ذلك

٣) كشف الظلم والظالمين بالحديث عن عاقبة الظلم وسوء مآل الظالمين ومصيرهم .
فى أكثر من موضع : وبأكثر من أسلوب ، وبذكر العديد من أسماء الظلمة.
وذلك فى مثل قوله تعالى
(ويضل الله الظالمين) [إبراهيم ٢٧] .
و(فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين) [إبراهيم ١٣] .
و(لا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون) [إبراهيم ٤٢] .
و(وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل) [إبراهيم ٤٤] .
و(ونرى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد * سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار) [إبراهيم ٤٩ ، ٥٠] .

ويوضح ذلك جيداً : أننا نجد السورة تنقسم إلى مقاطع بالآية :
الأول : يتضمن بيان حقيقة الرسالة ، وحقيقة الرسول ، ووحدة دعوة الرسل ... الخ .
الثانى : يتحدث عن نعم الله على البشر ، ثم الإشارة إلى الذين كفروا بهذه النعمة وبطروا ، والذين آمنوا بها وشكروا .. الخ .
الثالث : يتحدث عن الظالمين ، وبيان أحوالهم وسوء مصيرهم ، وسواد عاقبتهم .. الخ .

تاسعاً : تقسيم آيات السورة موضوعيا

هذه السورة تتكون من مقدمة ، و(٧) فقرات وخاتمة .

وهذه كلها : تفصل فى موضوع الإخراج من الظلمات إلى النور ، وتلفت النظر إلى كل ما يساعد عليها ، وتضرب مثلاً على أنواع من الخروج من الظلمات إلى النور ، ثم توجه الخارجين من الظلمات إلى النور إلى معان من ظلمات الحياة ، فتخرجهم منها إلى النور .

ويلاحظ : أن كل فقرة توصل إلى التى بعدها ، وكل فقرة لاحقة تتصل بما قبلها .

فالمقدمة : عبارة عن (٤) آيات
من الآية الأولى إلى نهاية الآية (٤) .
وفيها : بيان أسباب الخروج من الظلمات إلى النور بكل عام .

والفقرة الأولى : وهى عبارة عن (٤) آيات
من الآية (٥) إلى نهاية الآية (٨)
وفيها : الحديث عن موسى عليه السلام ، وتكليفه من الله أن يخرج قومه من الظلمات إلى النور ، وكذلك : بعض السنن التى لها علاقة فى هذا الموضوع ؛ مما يفهم منه أن إخراج الناس من الظلمات إلى النور بواسطة الرسول : هو سنة الله فى كل زمان .

وأما الفقرة الثانية : فهى عبارة عن (١٠) آيات
من الآية (٩) حتى نهاية الآية (١٨)
وفيها : الخطاب لهذه الأمة من أجل إخراجها من الظلمات إلى النور ، عن طريق تذكرها بأيام الله فى المخالفين .

والفقرة الثالثة : عبارة عن (٥) آيات
من الآية (١٩) حتى نهاية الآية (٢٣)
وفيها : عرض لعملية الإخراج من النور إلى الظلمات ، التى يقوم بها الشيطان ، كما عرضها هو وقبيله فى النار .

الفقرة الرابعة : عبارة عن (٤) آيات
من الآية (٢٤) حتى نهاية الآية (٢٧)
وفيها : ذكر لطريق من طرق الخروج من الظلمات إلى النور .

والفقرة الخامسة : عبارة عن (١٤) آية
من الآية (٢٨) إلى نهاية الآية (٤١)
وفيها : ذكر – كذلك – لوسائل الخروج من الظلمات إلى النور ، ولفظ النظر إلى فعل الكافرين بتبديل نعمة الله .

والفقرة السادسة : عبارة عن (٥) آيات
من الآية (٤٢) حتى نهاية الآية (٤٦)

وفيها : نهى للدعاة عن ظن السوء بالله تعالى ، بأن يظنوا غفلة الله تعالى عن عمل الظالمين .
والمؤمن لا يقع فى مثل هذا .. ولكن عليه أن يتذكر رقابة الله دائماً .
كما تأمر المجموعة بالإنذار باليوم الآخر ، وفى هذا لفت نظر للدعاة أن يكونوا يقظين منذرين .
والفقرة السابعة : عبارة عن (٥) آيات من الآية (٤٧) حتى نهاية الآية (٥١) .
وفيها : توجيه الداعية نحو الثقة المطلقة بوعد الله فى النصرة فى الآخرة وفى الدنيا ، حيث أن الثقة بوعد الله تعالى سمة رئيسية من سمات الداعية ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .
وأخيراً الخاتمة : وهى آية واحدة رقم (٥٢) وهى خاتمة آيات السورة ، وفيها : التذكير بأغراض السورة ومحتوياتها .

عاشراً : أبرز موضوعات السورة

تدور موضوعات السورة حول خدمة أهداف السورة المكية .
وتتعدد الموضوعات فيها لتعالج الأغراض المكية للقرآن الكريم .
بيد أننا نلاحظ : أنها تكون شديدة التركيز على بعض الموضوعات أكثر من شدتها على البعض الآخر .
ومن هذه الموضوعات :
١) وجود الله تعالى وتوحيده
فى مثل قوله تعالى (قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى) [إبراهيم ١٠] .
وفى مثل قوله تعالى (وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار) [إبراهيم ٣٠] .
٢) البعث والحساب والجزاء
فى مثل قوله تعالى (وويل للكافرين من عذاب شديد * الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً أولئك فى ضلال بعيد) [إبراهيم ٣٤] .
وفى مثل قوله تعالى (ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) [إبراهيم ٤١] .
وفى مثل قوله تعالى (إن الظالمين لهم عذاب أليم * وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام) [إبراهيم ٢٢ ، ٢٣] .
٣) الوحى والرسالة
يقول تعالى (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد) [إبراهيم ١] .
ويقول تعالى (فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين) [إبراهيم ١٣] .
٤) إرسال الرسل بلغات أقوامهم
فى مثل قوله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيض الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم) [إبراهيم ٤] .
٥) وظيفة الرسول
فى مثل قوله تعالى (ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد) [إبراهيم ١] .
(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور) .
وفى مثل قوله تعالى (وذكرهم بأيام الله إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) [إبراهيم ٥] .
٦) بيان بشرية الرسل

فى مثل قوله تعالى (قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله) [إبراهيم ١١] .

٧) صبر الرسل على الإيذاء فى سبيل الدعوة

يقول الرسل (ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون) [إبراهيم ٢] .

٨) اعتماد الرسل – وتوكلهم – على الله

يقول تعالى على ألسنتهم (وما لنا أن نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا)(٣) .

٩) تحقق وعد الله للرسل

فى مثل قوله تعالى (فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين * ولنسكننكم الأرض من بعدهم) [إبراهيم ١٤] .

وقوله تعالى (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد) [إبراهيم ١٥] .

١٠) بيان حجم ومنزلة أعمال الذين كفروا

يقول تعالى (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شئ ذلك هو الضلال البعيد) [إبراهيم:١].

١١) تخلى المستكبرين عن تابعيهم من الكفار يوم القيامة

(وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شئ قالوا : لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) [إبراهيم ٢١] .

١٢) موقف الشيطان من أتباعه يوم القيامة

(وقال الشيطان لما قضى الأمر : أن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل) [إبراهيم ٢٢] .

١٣) بيان مصير الكفار ومصير المؤمنين يوم القيامة

فى قوله تعالى (إن الظالمين لهم عذاب أليم) [إبراهيم ٢٢] .

وفى قوله تعالى (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام) [إبراهيم ٢٣] .

١٤) الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة

(قل لعبادى الذين آمنوا : يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال) [إبراهيم ٣١] .

١٥) بيان بعض نعم الله على الإنسان وأنها لا يمكن إحصاؤها

(الله الذى خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الأنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار) [إبراهيم ٣٢-٣٤] .

١٦) دعوات سيدنا إبراهيم

(وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام * رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم *ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون .ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله شئ فى الأرض ولا فى السماء .الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربى لسميع الدعاء

رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء *ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) [إبراهيم ٣٥-٤١] .

١٧) بيان أحوال الظالمين

حيث يقول تعالى (ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ..) [إبراهيم ٤٢-٥١] .

حادى عشر : بعض الدروس المستفادة

لا ينبغى أن يظن القارئ الكريم أن ما يذكر وتحت هذا العنوان – هنا ، وفى غير هذه السورة كذلك – هو المفيد فقط ، وأن ما عداه ليس بمفيد .

فليس هذا – قصدى . وحاشا لله أن نفهم فى ساحة كلامه من العزيز هذا المعنى .

بل إن ما يذكر هنا هو بعض ما يستفاد من جهة ، ومن جهة أخرى : فهو بعض ما تصل إليه عقولنا القاصرة .

وبعد هذا التوضيح ندلف إلى بعض ما يعين ... على بيانه مما يستفاد من هذه السورة على النحو التالى :

١) خطأ علماء الدين المقارن(١)

ذلك أنهم يقولون : أن الإعتقاد والإيمان بالله ..تطور وترقى من تعدد الآلهية إلى التكنية ، إلى التوحيد ،ومن عبادة الطواطم والأرواح والنجوم والكواكب إلى عبادة الله الواحد

وأنه تطور وترقى كذلك بتطور التجربة البشرية والعلم البشرى وبتطور وترقى الأنظمة السياسية ، وانتهائها إلى الأوضاع الموحدة تحت سلطان واحد .

ويوضح خطأ هذا الفهم : ما تؤكده لنا هذه السورة ، من أن موكب الإيمان منذ فجر التاريخ الإنسانى : موكب واحد موصول ، يقوده رسل الله الكرام ، داعين بحقيقة واحدة ، جاهدين بدعوة واحدة ، سائرين على منهج واحد ... كلهم يدعو إلى ألوهية واحدة ، وربوبية واحدة ، وكلهم لا يدعو مع الله أحداً ، ولا يتوكل على أحد غيره ، ولا يلجأ إلى ملجأ سواه ، ولا يعرف له سنداً إلا إياه .

قال تعالى (جاءتهم رسلهم بالبينات) [إبراهيم ٩] .

وقال تعالى (قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم) [إبراهيم ١٠] .

٢) إجابة هذا السؤال : لماذا كانت مواجهة الجاهلية لدعوة الرسل الكرام واحدة .. ؟

وبيان الإجابة :

أنه لما كانت الجاهلية : تقوم إبتداءً على أساس من دينونة العباد للعباد ، ومن تأليه غير الله تعالى ، أو من ربوبية غير الله تعالى .. !!

ولما كانت دعوة الرسل الكرام : إنما تقوم على توحيد الله تعالى ، وتنحية الأرباب الزائفة ، وإخلاص الدين لله ، وإفراده سبحانه وتعالى بالحاكمية والسلطان ..!!

كان لابد أن يحدث الاصطدام بين الجاهلية ودعوة الرسل .

فدعوة الرسل : تصطدم اصطداماً مباشراً بالقاعدة التى تقوم عليها الجاهلية، وتصبح بذاتها خطراً على وجود الجاهلية .

وبخاصة حين تتمثل دعوة الإسلام فى تجمع خاص ، يأخذ أفراده من التجمع الجاهلى ، وينفصل بهم عن الجاهلية من ناحية الاعتقاد ، ومن ناحية القيادة، ومن ناحية الولاء ، الأمر الذى لابد منه للدعوة الإسلامية فى كل مكان وفى كل زمان .

ومن جهة ثانية : عندما يشعر التجمع الجاهلى بالخطر الذى يتهدد قاعدة وجوده من الناحية الإعتقادية .

ومن جهة ثالثة : عندما يشعر بالخطر يتهدد وجوده ذاته ، يتمثل الاعتقاد الإسلامى فى تجمع آخر منفصل عنه ، ومواجهة له .

عندئذ يسفر التجمع الجاهلى عن حقيقة موقفه تجاه دعوة الإسلام .

إذن فهى معركة بين وجودين لا يمكن أن يكون بينهما : تعايش أو سلام.

(وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا) [إبراهيم ١٣] .

٣) المستضعفون كثرة ، والطواغيت قلة ، فماذا الذى يخضع الكثرة للقلة ..؟

إن الذى يخضع الكثرة للقلة الطاغية التى تستعبدها :

ضعف الروح فيها ، وسقوط الهمة منها ، وقلة النخوة لديها ، والتنازل الداخلى عندها عن الكرامة التى وهبها له لبنى الإنسان .

ومن هنا : فإن الطغاة لا يملكون أن يستدلوا الجماهير إلا برغبة هذه الجماهير ، التى هى – دائماً – قادرة على الوقوف لهم لو أرادت .

كما أن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل فى نفوس الأذلاء ، وهذه القابلية هى – وحدها – التى يعتمد عليها الطغاة .

٤) ثبوت سؤال الملكين فى القبر .

(يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) [إبراهيم ٢٧] .

اقرأ ما يفيد ذلك من مجاورات الدار الآخرة .

(وبرزوا لله جميعاً

فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شئ) [إبراهيم ٢١] .

٥) هل يحسب الرسول أن الله غافلاً عما يعمل الظالمون .. ؟

كلا ..

فلم هذا الأسلوب .. ؟

قال صاحب "مسائل الرازى" .

يجوز أن يكون هذا نهياً لغير النبى عليه الصلاة والسلام ، ممن يجوز أن يحسبه – تعالى – غافلاً ؛ لجهله بصفاته ، وبسبب ما يراه من تمتع الظالمين ، ثم يسمع بوعيد الله تعالى ، ثم لا يراه واقعاً بهم فى هذه الحياة الدنيا .

فهذه الصيغة : تكشف عن الأجل المضروب لأخذهم الآخذة الأخيرة – التى لا إمهال بعدها ، ولا فكاك منها .

(ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون..) [...إبراهيم ٤٢ وما بعدها] .

٦) لأهل النار خمس دعوات .

أخرج البيهقى عن محمد بن كعب القرطبى أنه قال :

لأهل النار خمس دعوات : يحببهم الله تعالى فى أربع منها ، فإذا كانت الخامسة : لم يتكلموا بعدها أبداً .

١ – يقولون :

(ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا – فهل إلى خروج من سبيل) ؟ [غافر ١١] .

(ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وأن يشرك به تؤمنوا ، فالحكم لله العلى الكبير) [غافر ١٢] .

٢ – ثم يقولون :

(ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون) [السجدة ١٢] .
فجيبهم جل شأنه قائلاً :
(فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) [السجدة ١٤] .
٣- ثم يقولون :
(ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل) [إبراهيم ٤٤] .
فيجيبهم تبارك وتعالى قائلاً :
(أو لم تكونوا قسمتم من قبل ما لكم من زوال وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال) [٤٥] .
٤- ثم يقولون :
(ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل)
فيجيبهم رب العزة قائلاً :
(أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير) [فاطر ٣٧]
٥- ثم يقولون :
(ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ربنا أخرجنا منها فإن دعونا إنا ظالمون)
فيجيبهم جل وعلا قائلاً :
(اخسئوا فيها ولا تكلمون) [المؤمنون ١٠٦-١٠٨] .
وحينئذ ينقطع رجاؤهم ويقبل بعضهم ينبح فى وجه بعض ، وتطبق عليهم، فلا يتكلمون بعدها أبداً ، ولا يكون إلا زفير وشهيق .
اللهم إنا نعوذ بك من غضبك ، ونلوذ بكنفك من عذابك ، ونسألك التوفيق للعمل الصالح فى يومنا هذا ، والتقرب إليك بما يرضيك عنا قبل أن يخرج الأمر من يدنا . يا رب العالمين .

١- أنظر : السخاوى .. جمال القراء ٣٦/١

الفيروزابادى .. بصائر ذوى التمييز ٢٦٨/١

القاسمى .. محاسن التأويل (تفسير سورة إبراهيم)

٢- أنظر : مكى بن أبى طالب.. التبصرة ص ٢٣٦

السخاوى .. جمال القراء ٢,٥/١

الفيروزابادى .. بصائر ذوى التمييز ٢٦٨/١

نثر المرجان ٣٢٩/٣

الآلوس روح المعانى (تفسير سورة إبراهيم)

٣- القرطبى .. الجامع لأحكام القرآن (تفسير سورة إبراهيم)

٤- الآلوس .. روح المعانى (تفسير سورة إبراهيم)

٥-فى قول الحسن ومجاهد والضحاك .. أنظر : القرطبى (إبراهيم تفسير الآية ٤٣) .

٦-أنظر : سيد قطب .. فى ظلال القرآن (تفسير سورة إبراهيم)

٧- سعيد حوى .. الأساس فى التفسير (تفسير سورة إبراهيم)

٨- د. عبد الحى الفرماوى.. زاد الدعاة ٣٣/٢.

٩- أنظر : الرازى .. مسائل الرازى وأجوبتهاص ١٦٦

سيد قطب فى ظلال القرآن (إبراهيم : تفسير الآية ٤٢]

١٠- المراغى تفسير المراغى (تفسير سورة إبراهيم)

فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

مفاتيح سورة الحجر

أولاً:اسم السورة

تسمى هذه السورة "الحجر"(١) وذلك : لاشتمالها على قصتهم(٢) ، ولفتا لأنظار أولى التبصر والابتصار ، بمصارع أهل هذا المكان ، ما جرى منهم ، ولهم .
{ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين * وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين * وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين * فأخذتهم الصيحة مصبحين * فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون} [الآيات ٨٠-٨٤] .

وذلك : دال على مؤاخذتهم لمجرد تكذيب الرسل الإعراض عن آيات الله بأدنى وجوه المؤاخذه مع غاية تحصنهم .

ففيه : غاية تعظيم الرسل والآيات(٣) .

وآثار مدائن هؤلاء القوم التى تعرف بـــ "مدائن صالح ظاهر حتى الآن"(٤).
يقول المسعودى : وحجر ثمود فى الجنوب الشرقى من أرض مدين وهى وعاقبة الخليج العقبة .
هذا ..
والحجر : اسم مكان .
وهناك من السور ما يسمى بأسماء الأماكن غير هذه السورة ومن ذلك ما يلى :
سورة الكهف .
سورة الأحقاف .

ثانياً : عدد آيات السورة و كلماتها و حروفها

آياتها : (٩٩) تسع وتسعون آية .
كلماتها : (٦٥٤) ستمائة وأربع وخمسون كلمة.
حروفها : (٢٧٦٠) ألفان وسبعمائة وستون حرفاً .

ثالثاً : ترتيب السورة فى المصحف و فى النزول

١- فى المصحف .. بعد : سورة "إبراهيم" ، وقبل : سورة "النحل" .
٢- فى النزول .. بعد : سورة "يوسف" ، وقبل : سورة "الأنعام" .

رابعاً : سبب نزول السورة

يقول الشهيد سيد قطب : نزلت هذه السورة – المكية بجملتها – بعد سورة يوسف ، فى الفترة الحرجة ، ما بين "عام الحزن" وعام الهجرة .

أى : فى تلك الفترة تحدثنا عن طبيعتها ، وملابساتها ، ومعالمها من قبل فى تقديم سورة يونس وتقديم سورة هود ، وتقديم سورة يوسف ، بما فيه الكفاية.

وفى هذه الفترة : كانت حركة الدعوة ، تكاد تكون قد تجمدت بسبب موقف قريش العنيد منها ومن النبى صلى الله عليه وسلم ، والعصبة المؤمنة معه، حيث اجترأت قريش على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بما لم تكن تجترئ عليه فى حياة أبى طالب ، واشتد استهزاؤها بدعوته ، كما اشتد ايذاؤها لصحابته.

ولذلك : نرى القرآن الكريم جاء فى هذه الفترة ، يهدد المشركين المكذبين ويتوعدهم ، ويعرض علهيم مصارع المكذبين الغابرين ومصائرهم ، ويكشف رسول صلى الله عليه وسلم ، عن علة تكذيبهم وعنادهم ، وهى لا تتعلق به ولا بالحق الذى معه ، لكنها ترجع إلى العناد الذى لا تجرى معه الآيات البينات ، ومن ثم يسلى الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، ويواسيه ، ويوجهه إلى الإصرار على الحق الذى معه والصدع به بقوة فى مواجهة الشرك وأهله ، والصبر بعد ذلك على بطء الاستجابة ووحشة العزلة وطول الطريق .

ولذلك نزلت سورة الحجر فى هذا الجو ، ولتحقيق هذا الغرض .

خامساً : مكية السورة و مدنيتها

سادساً : فضل السورة

سابعاً : صلة السورة بما قبلها

التناسب بين هذه السورة وما قبلها : شديد الوضوح ، بارز القوة .

وذلك واضح فى جو النزول وظروفه وملابساته التى تشترك فيه مجموعة هذه السور ، التى نزلت معها فى فترة واحدة .

ومن جهة ثانية : نجده شديد الوضوح فى مجموعة السور المكية قبلها ، والمبدوءة بحروف التهجى .

إذ نجد أن هذه السورة تبدأ بالحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم والقرآن، وتنتهى كذلك بالحديث عنهما ، وما بين البدء والخاتمة حديث عن أصول العقيدة وموقف المكذبين وبيان مصيرهم إلى غير ذلك مما فيه تثبيت للنبى صلى الله عليه وسلم وموازرة للمؤمنين معه .

وهذه السورة كذلك .

ومن جهة ثالثة : فإن التناسب بينها وبين سورة إبراهيم واضح جداً فى النقاط التالية .

١) إذا كانت سورة إبراهيم قد بدأت بـــ (الر) ٠٠ !! فإن سورة الحجر بدايتها كذلك بـــ (الر) .

٢) إذا كانت سورة إبراهيم تحدثت عن بعض أحوال الكفار يوم القيامة ٠٠ ثم بينت أنهم يودون – هناك – لو كانوا مسلمين فى قوله تعالى { .. يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل} [الآية ٤٤] .

فإن سورة الحجر – كذلك – تحدثت عنهم مبينة – أيضاً – أنهم يودون – هناك – لو كانوا مسلمين(٧) ، فى قوله تعالى {ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين}[الآية ٢] .

٣) إذا كانت سورة إبراهيم : ذكرت بعضاً مما يلاقيه الكفار فى الآخرة ، فى مثل قوله تعالى {وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد * سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار} [الآيتان ٤٩ ، ٥٠] .

فإن سورة الحجر ذكرت بعضاً مما لاقاه الكفار فى الدنيا(٨) ، فى مثل قوله تعالى {فأخذتهم الصيحة مشرقين * فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل} [الآيتان ٧٣ ، ٧٤] .

٤) إذا كان تعالى فى سورة إبراهيم ذكر أن من نعمه تعالى خلق السماوات والأرض وما فيهن ، بقوله {الله الذى خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار *

وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار *

وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار} [الآيات ٣٢-٣٤] .

فإن تعالى فى سورة الحجر(١) : بين بعضاً من وجوه الأنعام مما جعله تعالى فى السماوات والأرض (٧) ، فى قوله تعالى {ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين * وحفظناها من كل شيطان رجيم * إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شئ موزون * وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين * وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم * وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين} [الآيات ١٦-٢٢] .

٥) إذا كان تعالى قد تعرض لسيدنا إبراهيم فى سورة إبراهيم ، فى مثل قوله تعالى {وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام * ٠٠

رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم *

ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون *

ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شئ فى الأرض ولا فى السماء *

الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربى لسميع الدعاء.

رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء *

ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب *}[الآيات ٣٥-٤١] .

نقول : إذا كان ذلك كذلك :

فإن سورة الحجر(١) قد تعرضت لضيف سيدنا إبراهيم (٩)

وذلك فى قوله تعالى: {ونبئهم عن ضيف إبراهيم * إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون * قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم * قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون * قالوا بشرناك بالحق فلا تكن

من القانطين * قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون * قال فما خطبكم أيها المرسلون * قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين * إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين * إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين * فلما جاء آل لوط المرسلون * قال إنكم قوم منكرون * قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون * وأتيناك بالحق وإنا لها لصادقون * فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منك أحد وامضوا حيث تؤمرون * وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين * وجاء أهل المدينة يستبشرون * قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون * واتقوا الله ولا تخزون * قالوا أو لم ننهك عن العالمين * قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين * لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون * فأخذتهم الصيحة مشرقين * فجعلنا سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل * إن فى ذلك لآيات للمتوسمين }(١) [الآيات ٥١-٧٥] .

ثامناً : هدف السورة

تهدف هذه السورة إلى ما تهدف إليه السور المكية بعامة ٠٠ من ترسيخ المقاصد الأساسية لأركان الدعوة الإسلامية من تقرير الوحى والرسالة ، والبعث والجزاء ، وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية الله رب العالمين (١٠) .

ثم تهدف بصفة خاصة إلى(٦)

١) مواجهة واقع الفترة التى نزلت فيها مواجهة حركية .

فهى فى الوقت الذى تثبت فؤاد النبى صلى الله عليه وسلم وتعينه على آلام المواجهة بما تقصه من قصص إخوانه من الرسل وتبرز مصارع مكذبيهم .

تعرض مكذبى هذه الفترة ، شريطاً متكاملاً ، وصورة حية ، مما حدث لأمثالهم ، وسوف يحدث لهم إذا استمروا على عنادهم وتكذيبهم .

وعلى المؤمنين : فتثبتهم .

٢) توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم والجماعة المؤمنة معه ، توجيهاً وافياً مباشراً .

فبينما يخبره عن هؤلاء المكذبين بما يريح خاطره ، ويذهب عنه ما يجد من معاناة ٠ !!

فى مثل قوله تعالى: {ربما يود الذين كذبوا لو كانوا مسلمين * ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون}(١١) [الآيات ٢ ، ٣] .

وفى مثل قوله تعالى {إنا كفيناك المستهزئين} [الآية ٩٥] .

نجدها فى ذات الوقت : توجهه حركياً خلال هذه المواجهة .

فنجد من النواهى الحركية .

{لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم} [الآية ٨٨] .

ونجد من الأوامر الحركية

{.. وأعرض عن المشركين} [الآية ٩٤] .

{.. واخفض جناحك للمؤمنين} [الآية ٨٨] .

{وقل إنى أنا النذير المبين}(٤) [الآية ٨٩] .

{فاصدع بما تؤمر} [الآية ٩٤] .

{فسبح بحمد ربك}(٢٣) [الآية ٩٨] .

{وكن من الساجدين} [الآية ٩٨] .

{واعبد ربك حتى يأتيك اليقين} [الآية ٩٩] .

٣) مجاهدة المكذبين
وذلك فى الرد عليهم حينما طلبوا الآيات
بمثل قوله تعالى {ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين} [الآية ٨] .
وبمثل قوله تعالى {ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون} [الآيتان ١٤ ، ١٥] .
وكذلك بتهديدهم .
فى مثل قوله تعالى {وإن جهنم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم} [الآيتان ٤٣ ، ٤٤] .
وفى مثل قوله تعالى {فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون} [الآيتان ٩٢ ، ٩٣] .
وفى مثل قوله تعالى {الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون} [الآية ٩٦] .
وكذلك بيان مصير بعض من كانوا منهم .
فى مثل قوله تعالى بالنسبة لقوم لوط عليه السلام {فأخذتهم الصيحة مشرقين * فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل} [الآيتان ٧٣ ، ٧٤] .
وفى مثل قوله تعالى بالنسبة لمصير أصحاب الحجر المكذبين {فأخذتهم الصيحة مصبحين * فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون} [الآيتان ٨٣ ، ٨٤] .

تاسعاً : تقسيم آيات السورة موضوعيا

هذه السورة تنقسم إلى (٦) فقرات(١١)
الفقرة الأولى : عبارة عن (١٥) آية
من الآية الأولى حتى نهاية الآية (١٥) .
وفيها : بيان موقف الكافرين من الرسالة والرسول والوحى .
الفقرة الثانية : عبارة عن (٧) آيات
من الآية (١٦) حتى نهاية الآية (٢٢) .
وفيها : نسف لمواقف الكافرين من أساسها ، بإقامة الحجة عليهم .
والفقرة الثالثة : عبارة عن (٣) آيات
من الآية (٢٣) حتى نهاية الآية (٢٥) .
وفيها : التدليل على وجود الله من خلال ظاهرة الحياة ، والتدليل على اليوم الآخر من خلال التعريف على الله وصفاته .
الفقرة الرابعة : عبارة عن (٢٣) آية
من الآية (٢٦) حتى نهاية الآية (٤٨)
وفيها : ذكر خلق الإنسان ، والتعليل لظاهرتى الهداية و الضلال بما يعرف معه سبب الكفر ، كما رسمت المجموعة طريقة الاهتداء .
الفقرة الخامسة : عبارة عن (١٦) آية
من الآية (٤٩) حتى نهاية الآية (٨٤) .

وفيها : تصحيح لمفاهيم الجهلة بجلال الله ، الذين يستبعدون أن يعذب الله أحداً ، وتقدم نماذج من القرى التى أهلكت بعد الإنذار ، وحل بها جزاؤها بعد انقضاء الأجل .

الفقرة السادسة : عبارة عن (١٥) آية

من الآية (٨٥) حتى نهاية الآية (٩٩) وهى نهاية السورة .

وفيها : تعليل لتعذيب الله وإنعامه بأنه ما خلق السموات والأرض إلا بالحق، ثم هو قد أنزل القرآن ، فكيف يترك الناس سدى ؟ وبناءً عليه : فإن على الرسول النذير أن يعمل ، وأن يعلن ، وأن يتخذ مواقف ، وأن يرد على مواقف .

عاشراً : أبرز موضوعات السورة

موضوعات السورة – كذلك – بعامة : هى موضوعات السور المكية .

ثم نجد أن السورة ركزت بصفة خاصة : على بعض الموضوعات .

مثل : وصف القرآن الكريم ، إعراض المشركين واستهزائهم ، وإقامة الأدلة على وجود الله ووحدانيته بما يرونه من الآيات فى خلق السماوات والأرض والإنسان ، ثم بيان حالى أهل الجنة ، وأهل النار يوم القيامة ، ثم قصص بعض الأنبياء ...إلخ .

وتأخذ السورة فى توضيح هذه الموضوعات فى :

مقاطع خمسة :

الأول : بيان سنة الله التى لا تتخلف فى الرسالة والإيمان بها أو التكذيب [وذلك فى الآيات من ٢ – ١٥] .

بدءاً بذلك الإنذار الضمنى فى قوله تعالى (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين * ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) [الآيتان ٢ ، ٣] .

وانتهاءً بكشف عنادهم ، فى قوله تعالى (ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين * وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن * كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين * لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين) [الآيات ١٠ – ١٣] .

الثانى : بعض آيات الله فى الكون .. المقدرة بحكمته ، والمنزلة بقدره وقدرته [وذلك فى الآيات من ١٦ – ٢٢] .

بدءاً بقوله تعالى (ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين ..) [الآية ١٦] .

وانتهاءً بقوله تعالى (وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم) [الآية ٢٥] .

الثالث : عرض قصة البشرية ، وأهل الهدى والغواية فى تركيبها وأسبابها الأصيلة ، مصير الغاوين فى النهاية والمهتدين .

وذلك : فى قصة آدم .. الخ [وذلك فى الآيات من ٢٦ – ٥٠] .

بدءاً من قوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون) [الآية ٦] .

وانتهاءً بقوله تعالى (نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأنا عذابى هو العذاب الأليم) [الآيتان ٤٩ ، ٥٠] .

الرابع : فى مصارع الغابرين [وذلك فى الآيات من ٥١ – ٨٤] .

بدءاً من قوله تعالى (ونبئهم عن ضيف إبراهيم).

وانتهاءً بقوله تعالى (فأخذتهم الصيحة مصبحين * فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) [الآيتان ٨٣ ، ٨٤] .

الخامس : يكشف عن الحق الكامن فى خلق السماوات والأرض المتلبس بالساعة وما بعدها من ثواب وعقاب ، المفصل بدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم .

بدءاً من قوله تعالى (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل) [الآية ٨٥] .
وانتهاءً بانتهاء السورة (واعبد ربك حتى يأتيك لليقين) [الآية ٩٩] .

حادى عشر : بعض الدروس المستفادة

) وصف القرآن الكريم .
٢) الإعراض عن المشركين حتى يحل بهم ريب المنون .
٣) استهزاء المشركين وإنكارهم لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم لما يرونه من الآيات .
٤) إقامة الأدلة على وجود الله بما يرونه من الآيات فى خلق السماوات والأرض وفى خلق الإنسان .
٥) عصيان إبليس أمر ربه فى السجود لآدم وذكر الحوار بينهم وبين ربه ، وطلبه الإنظار إلى يوم الدين .
٦) بيان حالى أهل الجنة وأهل النار يوم القيامة .
٧) قصص بعض الأنبياء وذكر ما أهلك الله به كل أمة من الأمم المكذبة لرسلها .
٨) بيان أن الحكمة فى خلق السموات والأرض هى عبادة الله وحده وإقامة العدل والنظام فى المجتمع .
٩) ذكر ما أنعم الله به على نبيه من السبع المثانى والقرآن العظيم .
١٠)نهى نبيه والمؤمنين عن تمنى زخرف الدنيا وزينتها .
١١)أمره صلى الله عليه وسلم بخفض الجناح والرفق بمن اتبعه من المؤمنين .
١٢)الأمر بالدعوة للدين جهراً والصدع بها وعدم المبالاة بالمشركين .
١٣)أمره صلى الله عليه وسلم بالتسبيح والعبادة إذا ضاق صدره باستهزاء المشركين والطعن فيه وفى كتابه الكريم .

عاشراً : بعض ما يستفاد من السورة
إن كل آية فى السورة الكريمة لها أهميتها ، وكل كلمة لها معناها ومغزاها، وكل حرف له دلالته .
وفى كل من الفائدة والخير ما فيه :
وإذا كنا لا نستطيع الإحاطة – هنا – بكل فوائد السورة .. !!
فإننا نحاول – فقط – التعرض لبعض هذه الفوائد ، راجين من الله تعالى الإعانة على حسن الاستفادة بها ، وسرعة العمل بموجبها .
ومن هذه الفوائد :
١) عطف الله تعالى على المؤمنين .
فعن أبى موسى(١٢) ، قال : بلغنا أنه إذا كان يوم القيامة ، واجتمع أهل النار فى النار ، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة .
قال الكفار لمن فى النار من أهل القبلة : ألستم مسلمين ؟
قالوا : بلى .
قالوا : فما أغنى عنكم إسلامكم ، وقد صرتم معنا فى النار ..؟
قالوا : كانت لنا ذنوب ، فأخذنا بها .
فسمع الله ما قالوا ..
فأمر بكل من كان من أهل القبلة فى النار فأخرجوا .

فقال من فى النار من الكفار : يا ليتنا كنا مسلمين ..!!
ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين * ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) [الآيتان ١ ، ٢] .
٢) التلذذ والتنعم وما يؤدى إليه طول الأمل ليس من أخلاق المؤمنين .
قال تعالى (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون [الآية ٣] .
وعن بعض الصالحين : التمرغ فى الدنيا من آخلاق الهالكين .
٣) أن حفظ القرآن من التحريف والتبديل هو من الله تعالى ، وليس منا .
وهذا هو السر فى دخول التحريف ساحة الكتاب المقدسة السابقة ، وحمايتة ساحة القرآن منه .
(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) [الآية ٩] .
٤) أن آيات القدرة لا تنفع مهما بلغت فى الظهور عندا فقال الله تعالى للقلوب عن الاهتداء بها .
٤) يقول تعالى (ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) [الآيتان ١٤ ، ١٥] .
٥) أن الأخوة فى لله تعالى ، تقوم على : المجاهدة فى صفاء القلوب ، ونقاء الصدور من كل غل وحقود وعداوة .
(ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخواناً ٠٠) [الآية ٤٧] .
قال ابن عباس : أول ما يدخل أهل الجنة الجنة : تعرض لهم عينان ، فيشربون من إحدى العينين ، فيذهب الله ما فى قلوبهم من غل ، ثم يدخلون العين الأخرى ، فيغتسلون ، فتشرق ألوانهم ، وتصفوا وجوههم ، وتجرى عليهم نضرة النعيم.
ومن هذا النص نستفيد أن انعدام هذا الغل يكون فى الدار الآخرة .
ومعنى هذا : أنه كان يوجد هذا الغل أو بعضه فى الدنيا بينهم بحكم بشريتهم .
ومن هنا نفهم : أن الإسلام لا يحاول تغيير طبيعة البشر فى هذه الأرض ، ولا تحويلهم خلق آخر ، إنما يقر بشريتهم ويعالجهم ، ويعمل على تخفيف حدة هذه النوازع البشرية ، وتتسامى بهذه الطبيعة وصفاتها ؛ لتنصرف إلى الحب فى الله والكره فى الله .
وهل الإيمان – كما يقول سيد قطب – إلا الحب والبغض ٠٠ ؟
ولكنهم فى الجنة – فقد وصلت بشريتهم إلى منتهى رقيها ، وأدت – كذلك – دورها فى الحياة الدنيا – ينزع الله أصل الإحساس بالغل من صدورهم ، ولا تكون إلا الأخوة الصافية الودود .
إنها درجة أهل الجنة : فمن وجدها فى نفسه غالبة فى هذه الأرض ، فليستبشر بأنه من أهلها ، ما دام ذلك وهو ومؤمن ، إذ هو شرط لا نقوم بغيره الأعمال(٦) .
٦) وجوب العبادة والتسبيح عند المكاره .
يقول تعالى لحبيبه القدوة صلى الله عليه وسلم : (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) [الآيات ٩٧ – ٩٩].
٧) فى قوله تعالى (لعَمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) [الآية ٧٢] .
قال ابن القيم : فى (أقسام القرآن) : أكثر المفسدين من السلف والخلف بل لا يعرف السلف فيه نزاعاً – أن هذا ، يعنى قوله تعالى (لعمرك) قسم نم الله بحياة رسوله صلى الله عليه وسلم . وهذا من أعظم فضائله أن يقسم الرب عز وجل بحياته . وهذه ميزة لا تعرف لغيره .
ولم يوفق الزمشخرىّ لذلك . فصرف القسم إنه بحياة لوط . وإنه من قول الملائكة .

فقال : هو على إرادة القول . أى قالت الملائكة للوط عليه السلام : (لعمرك ...) الآية وليس فى اللفظ ما يدل على واحد من الأمرين بل ظاهر اللفظ وسياقه إنما يدل على أن ما فهمه السلف أطيب ، ولا أهل التعطيل والاعتزال.

قال ابن عباس رضى الله عنهما : (لعمرك) أى حياتك . قال : وما أقسم الله تعالى بحياة نبىّ غيره . والعَمر والعُمر واحد . إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإثبات الأخف ، لكثرة دور الحلف على ألسنتهم . وأيضاً فإن العمر حياة مخصومة . فهو عمر شريف عظيم أهلٌ أن يقسم به ، لمزيته على كل عمر من أعمار بنى آدم . ولا ريب أن عمره وحياته من أعظم النعم والآيات . فهو أهل أن يقسم به . والقسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات .

٨) فى قوله تعالى (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين) [الآية ٧٥] ،

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : هذه الآية أصل فى الفراسة . أخرج الترمذىّ من حديث أبى سعيد مرفوعاً(١٥) : (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) ثم قرأ هذه الآية : وقد كان بعض قضاة المالكية يحكم بالفراسة فى الأحكام ، جرياً على طريق إياس بن معاوية . انتهى .

وقد أجاد الكلام فى الفراسة ، الراغب الأصفهانىّ فى كتاب (الذريعة) حيث قال فى الباب السابع : وأما الفراسة ، فالاستدلال بهيئة الإنسان وأشكاله وألوانه وأقواله ، على أخلاقه وفضائله ورذائله .

وربما يقال : هى صناعة صيادة لمعرفة أخلاق الإنسان وأحواله . وقد نبه الله تعالى على صدقها بقوله(٢) (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين) [الحجر : ٧٥] ، وقوله (تعرفهم بسيماهم) [البقرة : ٢٧٣] ، وقوله (ولتعرفنهم فى لحن القول) [محمد : ٣٠] ولفظها من قولهم (فرس السبع الشاه) فكأن الفراسة اختلاس المعارف . وذلك ضربان : ضرب يحصل للإنسان عن خاطر لا يعرف سببه ، وذلك ضرب من الإلهام ، بل ضرب من الوحى . وإياه عنى النبىّ صلى الله عليه وسلم بقوله (١٥) (المؤمن ينظر بنور الله) وهو الذى يسمى صاحبه المروّع والمحدّث . وقال عليه الصلاة والسلام(١٦) (إن يكن فى هذه الأمة محدّث ، فهو عمر) .

وقيل فى قوله تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب) [الشورى : ٥١] : إنما كان وحياً بإلقائه فى الروع ، وذلك للأنبياء كما قال عز وجل : (نزل به الروح الأمين * على قلبك) وقد يكون بإليهام فى حال اليقظة وقد يكون فى حال المنام . ولأجل ذلك قال عليه الصلاة والسلام (الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة)(١٧) .

والضرب الثانى من الفراسة يكون بضاعة متعلمة وهى معرفة ما بين الألوان والأشكال ، وما بين الأمزجة والأخلاق والأفعال الطبيعية . ومن عرف ذلك كان ذاقهم ثاقب الفراسة . وقد عمل فى ذلك كتب . من تتبع الصحيح منها ، اطّلع على صدق ما ضمنوه . والفراسة ضرب من الظن . وسئل بعض محصلة الصوفية عن الفرق بينهما فقال : الظن يتقلب القلب ، والفراسة بنور الرب . ومن قوى فيه نور الروح المذكور فى قوله تعالى : (ونفخت فيه من روحى) [الحجر ٢٩ ، ص ٧٢] كان ممن وصفه بقوله(٦) (أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه) [١٧] وكان ذلك النور شاهداً ، أصاب فيما حكم به . ومن الفراسة قوله عليه الصلاة والسلام(١٨) فى المتلاعنين (إن أمرهما بيّن ، لولا حكم الله) .

- أنظر : السخاوى .. جمال القراء ٣٦/١
الفيروزابادى .. بصائر ذوى التمييز ٢٧٢/١
القاسمى .. محاسن التأويل (س : ١٥)
الفيروزابادى ..
٢- بصائر ذوى التمييز ٢٧٢/١
القاسمى ..
٣- محاسن التأويل (س : ١٥)
٤- الصابونى .. النبوة والأنبياء ص ٢٣.
٥- أنظر :مكى بن أبى طالب.. التبصرة ص ٢٣٨
السخاوى .. جمال القراء ٢,٥/١
الفيروزابادى .. بصائر ذوى التمييز ٢٧٢/١
.. نثر المرجان ٣٧٧/٣
الآلوس .. روح المعانى (س : ١٥)
٦- سيد قطب .. فى ظلال القرآن (س : ١٥)
٧- أنظر : الآلوس .. روح المعانى (س رقم ١٥)
المراغى .. تفسير المراغى (" " ")
٨- الآلوس .. روح المعانى (س رقم ١٥)
٩- المراغى .. تفسير المراغى (" " ")
١٠- الصابونى .. إيجاز البيان ص ٦١
١١- سعيد حوى .. الأساس فى التفسير ٢٨٦٠/٦ وما بعدها
١٢- ابن جرير الطبرى.. جامع البيان (س : ١٥)
المراغى .. تفسير المراغى (س : ١٥)
١٣- الفخر الرازى .. التفسير الكبير (س : ١٥)
١٤- القرطبى .. الجامع لأحكام القرآن (س : ١٥)
١٥- الترمذى..ك التفسير ، سورة الحجر ، باب حدثنا محمد بن إسماعيل
١٦- البخارى .. ك فضائل القرآن ، باب مناقب عمر بن الخطاب .
١٧- البخارى .. ك التعبير ، باب رؤيا الصالحين .
١٨- أنظر البخارى .. ك الطلاق ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم "لو كنت راحماً بغير بينة.." عن ابن عباس .

فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

مفاتيح سورة النحل

أولاً: اسم السورة

تسمى هذه السورة بما يلى :

١- سورة النحل(١)

ذلك : لأن ما ذكر من شأن النحل ، فى دقة الفهم فى ترتيب بيوتها ، ورعيها ، وسائر أمرها ، مع اختلاف ألوان ما يخرج منها ، من أعسالها ، وجعله شفاءً ، مع أكلها من الثمار والنافعة والضارة ، وغير ذلك من الأمور ، الدال عليها قوله تعالى {وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون * ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبيل ربك ذلك يخرج بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون} [الآيتان ٦٨ ، ٦٩] .

ما ذكر من شأن النحل هذا : فيه دلالة على أنه تعالى تام القدرة ، والعلم ، فاعل بالاختيار ، منزه عن شوائب النقص ، وهذا هو مقصود السورة(٢) .

كما أنه بهذه التسمية : يشير إلى أنه لا يبعد أن يلهم الله عز وجل بعض خواصه عباده .. أن يست خرجوا الفوائد الحلوة الشافية من هذا الكتاب . يحمل كلماته على مواضع الشرف ، وعلى المعانى المثمرة ، وعلى التصرفات العالية ، مع تحصيل الأخلاق الفاضلة ، وسلوك سبيل التصفية والتزكية .

وهذا : أكمل ما يعرف به فضائل القرآن ، ويدرك به مقاصده(٣).

وقال بعضهم : تسمية السورة بذلك .. تسمية بالأمر المهم ؛ ليتفطن الغرض الذى يرمى إليه .

(الجمعة) لأهمية الاجتماع الأسبوعى ، وما ينجم عنه من مصالح الأمور العامة .

(والحديد) لمنافعه العظيمة .

(والنحل) و(العنكبوت) و(النحل) للتفطن لصغار الحيوانات الحكيمة الصنائع.

وهكذا(٣) .

٢- سورة النعم(٤) .

وذلك : بسبب ما عدد الله تعالى فيها من النعم على عباده(٥) .

إقرأ مثلاً – قوله تعالى {هو الذى أنزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون} [الآيتان ١٠ ، ١١] .

وقوله تعالى {وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون} [الآية ١٤] .

وقوله تعالى {والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها إناثاً ومتاعاً إلى حين * والله جعل لكم مما خلف ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون} [الآيتان ٨٠ ، ٨١] .

ومن طريف ما يذكر : أن النحل نفسه من النعم ، فيذكر أن النحل سم باسم هذا : لأن الله تعالى نحل الناس العسل الذى يخرج منه ، إذ النحلة : العطية .

هذا .. ويذكر الإمام السخاوى لهذه السورة اسماً ثالثاً ، وهو

٣- سورة النعيم(٧) .

ثانياً : عدد آيات السورة و كلماتها و حروفها

آياتها : (١٢٨) ثمان وعشرون ومائة آية .
كلماتها : (٢٨٤٠) ألفان وثمانمائة وأربعون كلمة .
حروفها : (٧٧٠٧) سبعة آلاف وسبعمائة وسبعة أحرف(٨) .

ثالثاً : ترتيب السورة فى المصحف و فى النزول

١- فى المصحف ..بعد : سورة "الحجر" ، وقبل " سورة "الإسراء" .
٢- فى النزول ..بعد : سورة "الكهف" ، وقبل : سورة "نوح"

رابعاً : سبب نزول السورة

لما نزلت (اقتربت الساعة وانشق القمر)(١٠)
قال الكفار : إن هذا يزعم أن القيامة قد اقتربت ، فامسكوا عن بعض ما كنتم تعملون ..فأمسكوا وانتظروا فلم يروا شيئاً ! .
فقالوا : ما نرى شيئاً ..!!
فنزلت (اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون)(١١) فاشفقوا ، وانتظروا قرب الساعة ، فامتدت الأيام ..! .
فقالوا ما نرى شيئاً ..!!
فنزلت (أتى أمر الله)(١٢)
فوثب النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، وخافوا .
فنزلت (فلا تستعجلوه) فاطمأنوا .
فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "بعثت أنا والساعة كهاتين" وأشار بإصبعيه : السبابة والتى تليها – يقول : ان كادت لتسبقنى فسبقتها .

خامساً : مكية السورة و مدنيتها

وهى : مكية ..سوى قوله تعالى (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ..) الخ السورة .

سادساً : فضل السورة

هذه السورة شديدة الارتباط وقوية الاتصال بالسورة التى قبلها ، وتشير فيما يلى إلى بعض وجوه هذا الارتباط ، على النحو التالى(١٣) :

١) إذا كان تعالى قد طمأن حبيبه بعدم نجاة أعدائه من عقابه وذلك بقوله تعالى فى الحجر {فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون} [الآيتان ٩٢، ٩٣].
فقد بدأ النحل بتهديد هؤلاء الأعداء بعقابه قائلاً {أتى أمر الله فلا تستعجلوه}.

٢) إذا كان تعالى قد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم فى آخر سورة الحجر بما يريح فؤاده ويثبت حنانه بقوله {إنا كفيناك المستهزئين} [الآية ٩٥] .

٣) إذا كان تعالى قال لحبيبه فى آخر الحجر بصيغة المستقبل التى يفيد الرجاء {واعبد ربك حتى يأتيك اليقين} [الآية ٩٩] .
فقد بدأ النحل بتهديد أعداء الحبيب بصيغة الماضى التى تفيد تحقق الوقوع مع انقطاع الرجاء قائلاً {أتى أمر الله فلا تستعجلوه} .
٤) إذا كان تعالى أخبر فى الحجر أنه جعل فى السماء بروجاً وزينها فى نفسها بقوله {ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين} !! [الآية ١٦] .
فقد أخبر تعالى فى النحل أنه جعل فيها الخير لكم بقوله تعالى {هو الذى أنزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون * تنبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب . ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون} [الآيتان ١٠، ١١] .
٥) إذا كان تعالى فى الحجر بين أنه ألقى فى الأرض رواسى بقوله {والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شئ موزون} [الآية ١٩] .
فقد بين تعالى فى النحل علة القاء هذه الرواسى فى الأرض بقوله تعالى: {وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم} [الآية ١٥] .
٦) إذا كان تعالى فى الحجر أشار إلى خلق الإنسان الأول بقوله تعالى {ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون} [الآية ٢٦] مفضلاً له عن الجان ٠٠ !!
فقد أشار تعالى فى النحل إلى خلق ذريته بقوله تعالى {خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين} [الآية ٤] مبيناً عناده بعد تفضيله السابق .
٧) لما ذكر المولى تعالى فى الحجر عد أبواب جهنم بقوله {وان جهنم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم} [الآيتان ٤٣ ، ٤٤] .
قال تعالى – فى النحل – للظالمين {فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين} [الآية ٢٩] .
٨) إذا كان سبحانه تحدث عن الشيطان وإغوائه للإنسان فى الحجر ، وقال له {إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين} [الآية ٤٢] .
فقد قال فى النحل للنبى صلى الله عليه وسلم ومن تبعه {فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون} [الآيتان ٩٨، ٩٩] .

٩) إذا كان تعالى تحدث عن سيدنا إبراهيم – فى الحجر – مشيراً إلى ضيفه بقوله تعالى:{ونبئهم عن ضيف إبراهيم * إذ دخلوا عليه فقاولا سلاماً قال إنا منكم وجلون * قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم * قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون * قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين * قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون} [الآيات ٥١-٥٦] .

فقد تحدث سبحانه وتعالى عنه – فى النحل – مشيراً إلى مكانته ومنزلته وشكره لربه تعالى : {إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين} [الآيات ١٢٠-١٢٢] .

١٠) إذا كان تعالى قال فى الحجر لحبيبه {ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم} [الآية ٨٧] .

فقد بين فى النحل كيفية هذا الإيتاء والغاية منه بقوله تعالى: {قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين} [الآية ١٠٢] .

١١) لما ختم تعالى سورة الحجر بقوله : {ولقد تعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين}(٣)[الآيات ٩٧-٩٩] .

وكل ذلك أفعال يؤديها الحبيب صلى الله عليه وسلم تذهب الضيق عنه .

فقد ختم النحل بنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن هذا الضيق قائلاً {ولا تك فى ضيق مما يمكرون * إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون}(٤) [الآيات ١٢٧، ١٢٨] .

وزاد على ذلك : إثبات محبة الله له ودفاعه عنه .

ثامناً : هدف السورة

تهدف سورة النحل إلى أمرين هامين :

(الأمر الأول) : وهو وضع الأساس النظرى للإسلام.

ويستغرق هذا الأمر تسعاً وثمانين آية من آيات هذه السورة الكريمة ، من الآية الأولى وحتى نهاية الآية التاسعة والثمانين .

كما أن وضع هذا الأساس يتم بشكل يستجيش عند الإنسان معانى الدخول فى الإسلام والمسارعة فى الاستسلام لله تعالى فى أمره ونهيه .

ويتم ذلك فى النقاط التالية :

النقطة الأولى : ترسيخ أصول العقيدة وأساسها

من :

أ- إيمان بالله تعالى

{هو الذى أنزل من السماء ماءً كم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون * ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون}[الآيتان ١٠ ، ١١]

{ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً ولعلكم تهتدون} [الآية ١٤ ،١٥] .

وهو الذى {يعلم ما تسرون وما تعلنون}[الآية ١٩] .

وهو الذى {خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم بعد علم شيئاً إن الله عليم قدير} [الآية ٧٠] .

وهو الذى {فضل بعضكم على بعض فى الرزق} [الآية ٧١] .

وهو الذى {جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات} [الآية ٧٢] .
وهو الذى {يعلم وأنتم لا تعلمون} [الآية ٧٤] .
وهو الذى {أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً}(٨) .
وهو الذى {جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة} [الآية ٧٨] .
وهو الذى {جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين وهو الذى جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون} [الآية ٨١] .

ب- إيمان بالملائكة

فى مثل قوله تعالى {ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده} [الآية رقم ٢] .
وفى مثل قوله {هل ينظرون إلا تأتيهم الملائكة أو يأتى أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم} [الآية ٣٣] .

جـ- إيمان بالكتب المنزلة

فى مثل قوله تعالى :{وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين * ليجمعوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون}[الآيتان ٢٤ ، ٢٥] .
وفى مثل قوله تعالى:{وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون} [الآية ٤٤] .
وفى مثل قوله تعالى {ونزلنا إليك الكتاب تبياناً لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين} [الآية ٨٩] .

د- إيمان بالرسل

فى مثل قوله تعالى : {ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} [الآية ٣٦] .
وفى مثل : {وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} [الآية ٤٣] .

هـ- إيمان باليوم الآخر

فى مثل قوله تعالى: {أتى أمر الله فلا تستعجلوه} .
وفى مثل قوله: {وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون} [الآية ٣٨] .
وفى مثل: {وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شئ قدير} [الآية ٧٧] .

و- إيمان بالقضاء والقدر

فى مثل قوله تعالى : {ولله غيب السموات والأرض} [الآية ٧٧] .

وكان عرض هذا الأساس فى أسلوب يقيم الحجة على الخلق بوجوب الدخول فى الإسلام كله ، ويذكرهم بما أعده ت عالى للكافرين والمسلمين يوم القيامة ، بل يقيم الحجة على مجئ يوم القيامة .

النقطة الثانية : عرض بعض مظاهر القدرة الإلهية(١)

فى مثل قوله تعالى: {خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون} [الآية ٣] .
وقوله تعالى: {هو الذى أنزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون * ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون}[الآيتان ١٠ ، ١١] .

وقوله تعالى: {وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون وعلامات .. } [الآيات ١٢-١٦] .

وقوله تعالى: {وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين * وفى ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون} [الآيتان ٦٦ ، ٦٧] .

وقوله تعالى {وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون * ثم كلى من الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللاً فلا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون}[الآيتان ٦٨ ، ٦٩] .

وقوله تعالى {ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون} [الآية ٧٩] .

النقطة الثالثة : تذكير ببعض نعم الله تعالى(١٥)

ومعظم ما ذكر تحت بيان مظاهر قدرته تعالى هى من نعمه عز وجل

وتصرح السورة بجلاء قائلة {وما بكم من نعمة فمن الله وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم} [الآية ١٨] .

وتطالب بحق هذه النعم بجلاء كذلك قائلة {فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون} [الآية ١١٤] .

النقطة الرابعة : مناقشة المشركين فى عقائدهم

{وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شئ كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين} [الآية ٣٩] .

{وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعملون} [الآية ٣٨] .

{وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياى فارهبون} [الآية ٥١] .

{ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب إن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون} [الآية ٦٢] .

النقطة الخامسة : التعرض ليوم القيامة وبعض ما فيه

قال تعالى: {ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم قال الذين أوتوا العلم ان الخزى اليوم والسوء على الكافرين} .

وقال تعالى: {يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون} !!!

{ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون * فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين *
وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين * جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤن كذلك يجزى الله المتقين * الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلاماً عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون} [الآيات ٢٧-٣٢] .
وقال تعالى: {يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون} [الآية ١١١] .

ثانياً : التكليفات العملية المرتبة على الأساس النظرى
ويستغرق هذا الأمر تسعاً وثلاثين أية، هى باقى ايات السورة الكريمة
إذ يعد عرض الأساس النظرى للإسلام ، وترسيخ أصوله ، وبيان مظاهر قدرته ، والتذكير بنعمه .
تأخذ السورة فى تفصيل موضوع الدخول فى الإسلام ، واجتناب خطوات الشيطان .
ويلاحظ : أن هذه التكليفات هى من القواعد العامة ، وأصول الآداب ، ومكارم الأخلاق .
وكان هذا هو المناب لهذه الفترة من تاريخ الدعوة ، وهى الفترة المكية ، التى نزلت فيها هذه السورة .
وعلى الرغم من أن القرآن الكريم بجميع أوامره عدل وإحسان وصلة رحم، وبجميع نواهيه : نهى عن الفحشاء والمنكر والظلم .
فإن السورة ركزت – من باب – على التفصل فى التكاليف .

أ- الأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى
{إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى} [الآية ٩٠] .

ب- الأمر بالوفاء بالعهود والعقود .
{وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم} [الآية ٩١] .

جـ- الأمر بأكل الطيبات
{فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً} [الآية ١١٤] .

د-الأمر بالدعوة إلى الحكمة والموعظة الحسنة
{ادع إلى سبييل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) [الآية ١٢٥]

هـ- الأمر بالصبر
{واصبر وما صبرك إلا بالله} [الآية ١٢٧] .

و- النهى عن الفحشاء والمنكر والظلم
{وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى} [الآية ٩٠] ..

ز- النهى عن نقض العهود

{ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون ايمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة} [الآية ٩٢] .

ح- النهى عن التحليل والتحريم بغير ما أنزل الله
{ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون} [الآية ١١٦] .

تاسعاً : تقسيم آيات السورة موضوعيا

هذه السورة تتكون من قسمين رئيسين :
القسم الأول : عبارة عن (٨٩) آية
من الآية الأولى حتى نهاية الآية (٨٩) .
وفيه : وضع الأسس الأولى النظرية فى فهم قضايا هذا الدين ، توصلاً بها إلى حسن الطاعة ، والمسارعة فى الامتثال ، فعلاً ، أو اجتناباً .
والقسم الثانى : عبارة عن (٣٩) آية
من الآية (٩٠) حتى نهاية الآية (١٢٨) وهى خاتمة آيات السورة .
وفيه : الأمر ، والنهى ، والتوجيه ، والتأديب .. المبنى على الأسس النظرية التى قدمها القسم الأول .

عاشراً : أبرز موضوعات السورة

عرضنا فى النقاط السابقة لكثير من موضوعات السورة ، وبقيت بعض الموضوعات التى يتعين علينا أن نشير إليها هنا :
ومن ذلك :
١) الحديث عن عادة وأد البنات ، بما ينفر منها ويقطع دابرها .
قال تعالى (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون * وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون) [الآيات ٥٧-٥٩] .
٢) الحديث عن شهادة النبى صلى الله عليه وسلم يوم القيامة على العالمين.
(ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) [الآية ٨٩] .
٣) الحديث عن علة افتراق الأمم
(ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء) [الآية ٩٣] .
٤) الحديث عن أدب تلاوة القرآن الكريم
(فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) [الآية ٩٨] .
٥) الحديث عن الردة عن الإسلام والتحذير من ذلك
(من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) [الآية ١٠٦] .
٦) الحديث عن النموذج الكامل للمسلم

(إن إبراهيم كان أمة قانتاً حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه ٠٠٠) [الآيتان ١٢٠ ، ١٢١] .
٧) الحديث عن سبت اليهود واختلافهم فيه
(إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) [الآية ١٢٤] .
٨) الحديث عن المنهاج الأمثل للوعاظ والدعاة إلى الله
(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عاقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبروا فما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) [الآيات ١٢٥-١٢٨] .

ومجمل ما حوته السورة الكريمة من الآداب والأحكام

١) استعجل المشركين الساعة .
٢) ذكر الأدلة على التوحيد بخلق العالم العلوى والسفلى وخلق الإنسان .
٣)الامتنان على عبادة بخلق الأنعام وما فيها من المنافع من أكل وحمل أثقال إلى البلاد البعيدة .
٤) النعى على المشركين فى عبادة الأصنام والأوثان .
٥) إنذار المشركين بأن يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من المثلات وبما آتاهم من العذاب من حيث لا يشعرون .
٦) احتجاج المشركين بعدم الحاجة إلى إرسال الرسل بأن ما هم فيه من كفر وضلال مقدر مكتوب عليهم ، فلا فائدة فى إرسالهم ، وقد ردّ الله عليهم بأن وظيفة الرسل البلاغ والإنذار لا خلق الهداية والإيمان .
٧) إجمال دعوة الأنبياء بأنها عبادة الله واجتناب الطاغوت ، ومن الناس من استجاب لدعوتهم ومنهم من حقت عليه الضلالة .
٨) إنكار المشركين للبعث والنشور وحلفهم على ذلك ، وتكذيب الله لهم فيما يقولون .
٩) إنكارهم بعث محمد صلى الله عليه وسلم بأنه رجل لا ملك ، فكذبهم الله بأن الأنبياء جميعاً كانوا رجالاً لا ملائكة .
١٠) إنذار المشركين بعذاب الخسف .
١١) جعلهم الملائكة بنات مع حزنهم إذا بشر أحدهم بالأنثى .
١٢) رحمة الله بعباده وعدم مؤاخذتهم بذنوبهم ، وأنه لو آخذهم ما ترك على ظهر الأرض دابة .
١٣) ذكر نعمه على عباده بإنزال اللبن من بين الفرث والدم ، وأخذ الثمرات من النخيل والأعناب والعسل من النحل .
١٤) تفاضل الناس فى الأعمار والأرزاق .
١٥) ضرب الأمثال لدحض الشركاء والأنداد من دون الله .
١٦) الامتنان على عباده بخلق السمع والبصر وتسخير الطير فى جو السماء وجعل البيوت سكناً ، وجعله لنا سرابيل تقى الحر وسرابيل تقى بأس العدو.
١٧) جعل الأنبياء شهداء على أممهم وعدم الإذن للكافرين فى الكلام وعدم قبول معذرتهم .
١٨) الأمر بالعدل والإحسان وصلة الأرحام ، والنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، والأمر بالوفاء بالعهود وضرب الأمثال لذلك .

١٩) الأمر بالاستعاذة من الشيطان وبيان أن سلطانه على المشركين .
٢٠) تكذيبهم للرسول إذا جاءهم يحكم لم يكن فى شريعة من قبله من الأنبياء وادعاؤهم أن هذا القرآن إنما هو تعليم من عبد رومى ورد الله عليهم ذلك.
٢١) إنه لا ضير على من كفر بالله وقلبه مطمئن بالإيمان دون من شرح بالكفر صدراً .
٢٢) دفاع كل نفس عن نفسها يوم القيامة وجزاء كل نفس بما عملت.
٢٣) ذكر ما حرمه الله من المطاعم والنهى على تقوّلهم على الله بغير علم.
٤٤)ذكر ما حرمه على اليهود بسبب ظلمهم .
٢٥) مدح إبراهيم عليه السلام ووصفه بصفات لم يوصف بها نبى غيره ، ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم باتباعه وسلوك طريقته فى العقاب والصبر على الأذى .

وقد انتهى تصنيف هذا الجزء بمدينة حلوان من أرياض القاهرة عصر يوم الأربعاء الثلاثين من جمادى الآخرة من سنة ثلاث وستين وثلاثمائة من هجرة سيد ولد عدنان .

حادى عشر : بعض الدروس المستفادة

١) انشغال الناس بأمر الساعة وأهوالها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب مثل الترس، فما تزال ترتفع فى السماء ، ثم ينادى مناد فيها : يا أيها الناس !!

فيقبل الناسى بعضهم على بعض : هل سمعتم ؟

فمنهم من يقول : نعم

ومنهم من يقول : لا

ثم ينادى الثانية : يا أيها الناس !!

فيقول الناس بعضهم لبعض هل سمعتم ؟

فيقولون : نعم .

ثم ينادى الثالثة : يا أيها الناس (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "والذى نفسى بيده : إن الرجلين لينشران الثوب فما يطويانه أبداً ، وإن الرجل ليمدن حوضه يسقى فيه شيئاً أبداً ، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبداً .

قال : ويشتغل الناس .

٢) ضعف الإنسان ومجادلته وندمه

قال تعالى (خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين) [الآية ٤].

وأخرج الإمام أحمد وابن ماجه عن بشر بن جحاش ، قال : بصق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كفه ، ثم قال : يقول الله تعالى : ابن آدم ! أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سويتك فعدلتك ٠٠ مشيت بين برديك وللأرض منك وتيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت الحلقوم : قلت : أتصدق ؟ وأنى أوان الصدقة ؟ !!

٣) من معجزات القرآن وإعجازه

قال تعالى (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) [الآية ٨] .

فذكر فى الآية الكريمة أدوات الركوب المعروفة وقت نزول هذا النص .

ثم أشار بقوله تعالى (ويخلق ما لا تعلمون) إلى مركوبات الإنسان ستخلق بعد لا يعلمها الإنسان حين نزول القرآن .

وقد رأينا فى عصرنا من هذا الحديد: أكثر من أى عصر مضى .
وإذا كان القرآن خطايا لكل عصر – كما هو معروف – فهذا يفيد : أن ما سيخلقه تعالى مما يركبه الإنسان ، ويكون زينة له : سيكون متطوراً ، يأتى فى العصور اللاحقة ما لا يعلمه أهل العصور السابقة .
٤) مدى رأفة الله تعالى ورحمته بعباده
قال صلى الله عليه وسلم "لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله!!
إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم ومع ذلك :
قال صلى الله عليه وسلم : إن الله ليملى الظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) .
وصدق الله العظيم (إن ربكم لرؤوف رحيم) [الآية ٧] .
٥) هل فى السماوات دواب أو لا ٠٠ ؟
إذ يقول تعالى (ولله يسجد من فى السماوات والأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون) [الآية ٤٩] .
يفهم من ظاهر الآية : إن فى السماوات دواب ، كما فى الأرض دواب .
وفى عصرنا هذا : يزداد الكلام عن احتمالات وجود حياة فى أحرام إحدى كحرم أرضنا .
ونحن الآن : لا نستطيع أن نجزم بشئ .
ولكن : على فرض اكتشاف جرم فيه حاية ، فإن الآية يمكن أن تحمل عليه.
أما إذا لم يتبين مثل ذلك .
فالآية تحمل على أن المذكور فيها : يراد به دواب الجنة ، والله أعلم.
٦) العسل (فيه شفاء للناس) [الآية ٦٩] .
كتب العلماء فى العســل وفوائده والتــداوى به كثيراً ، ولا نطيل هنا بذلك(١٤) .
بل ذكر فقط حديثاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم يكفينا فى هذا الموضوع.
روى البخارى ومسلم فى صحيحهما عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .
فقال : إن أخى استطلق بطنه .
فقال : اسقه عسلاً .
فذهب ، فسقاه عسلاً ، ثم جاء .
فقال : يا رسول الله !! سقيته عسلاً ، فما زاده إلا استطلاقاً .
قال : اذهب فاسقه عسلاً .
فذهب ، فسقاه عسلاً ، ثم جاء
فقال : يا رسول الله ! ما زاده إلا استطلاقاً .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "صدق الله وكذب بطن أخيك ، اذهب فاسقه عسلاً" .
فذهب ، فسقاه عسلاً ، فبرئ .
وهذا ٠٠
قال بعض علماء الطب : كان هذا الرجل عنده فضلات ، فلما سقاه – الأولى – وهو حار ، تحللت ، فأسرعت فى الاندفاع ، فزاده إسهالاً ، فاعتقد الأعرابى : أن هذا يضره ، وهو مصلحة لأخيه .
ثم سقاه – الثانية – فازداد التحليل والرفع .

ثم سقاه – الثالثة – فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبطن وخرجت، استمسك بطنه ، وصلح مزاجه واندفعت الأسقام ببركة إشارته صلى الله عليه وسلم .
وفى هذا ما يفيد أن ما يقوله الله تعالى وما يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم : واجب الاتباع دون مناقشة أو تباطؤ ، بل سمة المؤمن أن يقول : سمعنا وأطعنا .
وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليكم بالشفائين : العسل والقرآن".
٧) الحياة الطيبة للمؤمن الذى يعمل الصالحات
عند قوله تعالى (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن : فلنحيينه حياة طيبة) [الآية ٩٧] .
قال صاحب الظلال : العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه : حياة طيبة فى هذه الأرض .
لا يهم أن تكون ناعمة رغدة ثرية بالمال .
فقد تكون به .
وقد لا يكون معها .
وفى الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير ، تطيب بها الحياة ، فى حدود الكفاية .
فيها : الاتصال بالله ، والثقة به ، والاطمئنان إلى رعايته ، وستره ، ورضاه .
وفيها : الصحة ، والهدوء ن والرضى ، والبركة ، وسكن البيوت ، ومودات القلوب .
وفيها : الفرج بالعمل الصالح ، وآثار فى الضمير ، وآثاره فى الحياة .
وليس المال إلا عنصراً واحداً يكفى منه القليل ، حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله .
كما أن الحياة الطيبة فى الدنيا : لا تنقص من الأجر الحسن فى الآخرة .
بل يكون هذا الأحد : على أحسن ما عمل المؤمنون فى الدنيا .
ويدخل فى هذا الأحد : تجاوز الله تعالى لهم عن السيئات .
مما أكرمه من حذاء !!!
٨) اختلاف اليهود فى السبت ، وأثر ذلك ثبت فى الصححين أن رسول الله صلى الله عليه
يقول تعالى (إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ٠٠) [الآية ١٢٤] .
ثبت فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم .
قال "نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، ثم هذا يومهم الذى فوض عليهم ، فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالناس لنا تبع ، اليهود غداً ، والنصارى بعد غد" [رواه : البخارى] .
كما روى الإمام مسلم ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "أصل الله عن الجمعة من كان قبلنا ، فكان لليهود يوم السبت ، وكان للنصارى يوم الأحد .
فجاء الله بنا ، فهدانا الله ليوم الجمعة .
فجعل الجمعة والسبت والأحد .
وكذلك : هم تبع لنا يوم القيامة .
نحن الآخرون من أهل الدنيا ، والأولون يوم القيامة ، والمقضى بينهم قبل الخلائق [رواه مسلم] .
٩) فى قوله تعالى
(ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) [الآية ١١٦] .
قال الحافظ بن كثير : يدخل فى الآية كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعىّ أو حلل شيئاً مما حرم اللهن . أو حرّم شيئاً مما أباح الله ، بمجرد رأيه وتشهيّه .

أخرج ابن أبى حاتم عن أبى نضرة قال : قرأت هذه الآية فى سورة النحل. فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومى هذا .
قال فى (فتح البيان) : صدق رحمه الله . فإن هذه الآية تتناول بعموم لفظها فتيا من أفتى بخلاف ما فى كتاب الله ، أو فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. كما يقع كثيراً من المؤثرين للرأى المقدّمين له على الرواية . أو الجاهلين بعلم الكتاب والسنة .
وأخرج الطبرانىَ عن ابن مسعود قال : عسى رجل يقول : إن الله أمر بكذا ونهى عن كذا . فيقول الله عز وجل : كذبت . أو يقول : إن الله حرم كذا أو أحلّ كذا : فيقول الله له : كذبت .
قال ابن العربىَ : كره مالك وقوم أن يقول المفتى : هذا حلال وهذا حرام فى المسائل الاجتهادية . وإنما يقال ذلك فيما قص الله عليه . ويقال فى المسائل الاجتهادية : إنى أكره كذا وكذا ، ونحو ذلك .

ثاني عشر : مصادر المفاتيح و هوامش البحث

١- أنظر : السخاوى .. جمال القراء ٣٦/١
الفيروزابادى .. بصائر ٢٧٨/١
البقاعى .. نظم الدرر (س رقم ١٦)
الزركشى .. البرهان (النوع ١٤)
السيوطى .. الاتقان (النوع ١٧)
الآلوس .. روح المعانى (س رقم ١٦)
القاسمى .. محاسن التأويل (")
٢- البقاعى .. نظم الدرر (س رقم ١٦)
٣- القاسمى .. محاسن التأويل (" ")
٤- أنظر : القرطبى .. الجامع لأحكام القرآن (" ")
السيوطى .. الاتقان (النوع ١٧)
٥- أنظر : السخاوى ، البقاعى، السيوطى ، الآلوس ، القاسمى (مصادر سابقة)
٦- الدميرى .. حياة الحيوان ٣٣٩/١
٧- السخاوى .. جمال القراء ٣٦/١
٨- أنظر : مكى بن أبى طالب التبصرة ٣٣٩/١
السخاوى جمال القراء ٢,٥/١
الفيروزابادى بصائر ٢٧٨/١
نثر المرجان ٤١٣/٣
الآلوس روح المعانى (سورة رقم ١٦)
٩- أنظر : الواحدى .. أسباب النزول ص ١٥٩
البغوى .. معالم التنزيل (سورة رقم ١٦)
الفخر الرازى .. التفسير الكبير (" ")
القرطبى .. الجامع لأحكام القرآن (" ")

١٠- القمر (آية ١) وهى السورة رقم ٥٤ فى المصحف الشريف .
١١- الأنبياء (آية ١) وهى السورة رقم ٢١ فى المصحف الشريف .
١٢- النحل (آية ١) وهى سورة رقم ١٦ فى المصحف .
١٣- أنظر : الآلوس .. روح المعانى (سورة رقم ١٦)
المراغى .. تفسير المراغى (" ")
حجازى .. التفسير الواضح (" ")
١٤- أنظر : سعيد حوى .. الأساس ٢٩١٣/٦ ، ٣٠٢٠ ، ٢٩٨٧ ، ٢٩٢١ ، ٢٩٢٢ ، ٢٩٤٧ ، ٢٩٤٨ ، ٢٩٦٦ ، ٢٩١٨
١٥- د/ محمد حجازى التفسير الواضح ٢٨/١٤
١٦- المراغى تفسير المراغى ١٦٤/١٤ ، ١٦٥
١٧- ابن كثير .. تفسير القرآن الكريم (سورة رقم ١٦)
١٨-
١٩- أى : كثر خروج ما فيه .. يريد : الاسهال (أنظر : النهارية فى غريب الحديث والأثر – باب الطاء مع اللام) .
٢٠- سيد قطب .. فى ظلال القرآن ٢١٩٣/١٤

فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

مفاتيح سورة مريم

أولاً:اسم السورة

تسمى هذه السورة بـــ :

١) سورة مريم :

وذلك لاشتمالها على قصتها ونبئها الجارف ، وتشريعاً للسيدة العذراء ، البتول ، مريم إبنة عمران ، وتخليداً لتلك المعجزة الباهرة فى خلق إنسان بلا أب ، ثم انطاق الله للوليد وهو طفل فى المهد ، وما جرى من أحداث غريبة رافقت ميلاد عيسى عليه السلام .

وقال المهايميَّ : لأن قصتها تشي إلى أن من اعتزل من أهله لعبادة الله ، وطلب بها إشراف نوره ٠٠ يرجى أن يكشف له عن صفات الحق ، وعن عالم الملكوت ، وتظهر له الكرامات العجيبة(٤) .

هذا ٠٠

ولم تذكر امرأة باسمها صريحاً فى القرآن الكريم ٠٠ إلا "مريم" ، عليهما السلام(٥) .

وقد ذكر صاحب الفتوحات الإلهية أنها ذكرت فى القرآن الكريم فى ثلاثين موضعاً(٥) .

وبالمراجعة تبنى أنها ذكرت فى القرآن الكريم أربعاً وثلاثين مرة(٦) .

٢) سورة "كهيعص"(٧)

وذلك لافتتاحها بها(٨)

وقد جاء ذلك فيما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما(٩) .

قال القــرطبى : هو اختيار القشبرى فى أوائل الحروف – يعنى بصفة عامة –

وعلى هذا قيل : تمام الكلام عند قوله "كهيعص" كأنه إعلام باسم سورة ، كما تقول : كتاب كذا أو باب كذا ثم تشرع فى المقصود(٦) .

ثانياً : عدد آيات السورة و كلماتها و حروفها

آياتها(١١) : (٩٨) ثمان وتسعون آية .

كلماتها : (١١٩٢) ألف ومائة واثنتان وتسعون كلمة .

حروفها : (٣٨٠٢) ثلاثة آلاف وثمانمائة وحرفان .

ثالثاً : ترتيب السورة فى المصحف و فى النزول

أ- فى المصحف .. بعد : سورة "الكهف" ، وقبل : سورة "طه" .

ب- فى النزول .. بعد : سورة "فاطر" ، وقبل : سورة "طه" .

رابعاً : سبب نزول السورة

لا يوجد
وقد ورد أنها نزلت ليلاً .
فقد أخرج الطبرانى ، وأبو نعيم ، والديلمى ، من ... أبى بكر بن عبد الله بن أبى مريم الغسانى عن أبيه عن جده قال : "أتيت رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقلت : ولدت لى الليلة جارية ، فقال : والليلة أنزلت على سورة مريم(٩) .
وفى الاتقان للسيوطى : روى الطبرانى وأبو عبيد فى فضائله عن ابن عباس ، قال : "أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : ولدت لى الليلة جارية ، فقال : والليلة أنزلت على سور قمريم ، سمها مريم(١٢) .

خامساً : مكية السورة و مدنيتها

السورة : مكية باتفاق .
وقيل : مكية إلا آية رقم ٥٨ ، وآية رقم ٧١ فهما مدنيتان .

سادساً : فضل السورة

لم نعثر على آثار فى ذلك .

سابعاً : صلة السورة بما قبلها

إن الصلة بين هذه السورة وسورة الكهف قوية جداً ، وذلك واضح فى النقاط التالية :
١) احتواء السورتين على أعاجيب قدرة الله تعالى ..
فإذا كانت سورة الكهف تحدثت عن أعجوبة عن فتية الكهف الذين آووا إليه وقالوا {ربنا آتنا من لدنك رحمة وهئ لنا من أمرنا رشداً} [الكهف ١٠] .
والذين قال تعالى عنهم {فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عدداً} [الكهف ١١] .
وقال {ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً} [الكهف ٢٥] .
فإن سورة مريم قد تحدثت عن أعجوبة غلام زكريا فى قوله تعالى {يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً * قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغنى من الكبر عتياً * قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً} [مريم ٧-٩] .
كما تحدثت عن أعجوبة الأعاجيب وهى ولادة عيسى عليه السلام من غير أب .
فى قوله تعالى {فأرسلنا إليك روحنا فتمثل لها بشراً سوياً * قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً * قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً * قال كذلك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً} [مريم ١٧-٢١] .
الحديث عن عيسى عليه السلام وبعض أتباعه .
٢) إذا كن قد ورد أن أصحاب الكهف كانوا من أتباع عيسى عليه السلام ، كما روى عن وهب بن منبة(١٠) .
فإن مجئ هذه السورة التى تحتوى على تفصل قصة عيسى عليه السلام بعدها : فيه غاية المناسبة .

الحديث عن الأنبياء والمرسلين فى السورتين .
٢) إذا كان تعالى قد ذكر فى الكهف المرسلين إجمالاً فى قوله تعالى {وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين} [الكهف ٥٦] .
٣)فقد ذكر سبحانه فى مريم بعض المرسلين تفصيلاً ، حيث ذكر فيها : زكريا ويحيى وعيسى وإبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى وإسماعيل وإدريس على سبيل المثال .
٤) إذا كانت سورة الكهف : قد اشتملت على أعاجيب القصص ، مصل : قصة أصحاب الكهف ، وقصة موسى وفتاه ، وقصة ذى القرنين !!
فإن سورة مريم : قد اشتملت على الأعاجيب من ذلك كذلك ، مثل : قصة ولادة يحيى عليه السلام ، وقصة ولادة عيسى عليه السلام ولهذا ذكرت مريم بعد الكهف(٩) .
٥) قيل : إن أصحاب الكهف يبعثون قبل الساعة ، ٠٠٠٠ مع عيسى عليه السلام ، حين ينزل .
ولذلك : ففى ذكر هذه السشورة بعد الكهف – إن ثبت ذلك ما لا يخفى من المناسبة ، ويقوى ذلك : أنهم – أى أصحاب الكهف – من قوم عيسى عليه السلام(٩) .
٦) الحديث عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيهما .
فإذا كانت الكهف قد ختمت بقوله تعالى {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً * خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً} [الكهف ١٠٧ ، ١٠٨] .
فإن مريم قد ختمت بقوله تعالى {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً} [مريم ٩٦] .

ثامناً : هدف السورة

تدور سورة مريم حول إبراز عدة أهداف تريد آياتها ترسيخ فى القلوب وتبتها فى الأذهان وهى :
١) إثبات وحدانية الله تعالى :
وهى إذ تعنى بهذا الهدف ، وتحاول إثباته ، تواجه :
أ- أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، الذين يجعلون لله الولد بصفة خاصة.
فى مثل قوله تعالى {ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون} [مريم ٣٤ ، ٣٥] .
ب-المشركين من أهل مكة الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى على وجه العموم .
سواء أكان ذلك عن طريق اتخاذ الله الولد ، فى مثل قوله تعالى {وقالوا اتخذ الله ولداً * لقد جئتم شيئاً إداً * أن دعوا للرحمن وداً * وما ينبغى الرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من فى السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عداً * وكلهم آتيهم يوم القيامة مرداً} [مريم ٨٨-٩٥] .
أم كان ذلك عن طريق الند لله تعالى عن ذلك – والنظير ، فى مثل قوله تعالى {واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً} [مريم ٨١ ، ٨٢] .
٢) إثبات وحدة الرسالة
ولتأكيد هذا الهدف وإثباته وتوضيحه :
تسوق السورة من القصص ستاً ، لتثبت أن أصحابها من الأنبياء جميعاً كانت رسالتهم واحدة ، وأنهم جميعاً دعواً إلى توحيد الله تعالى .
والقصص الست هى :
قصة زكريا ويحيى .

قصة مريم وعيسى .
قصة إبراهيم .
قصة موسى .
قصة إسماعيل .
قصة إدريس .

ثم تعقب على قصصهم بقوله تعالى {أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً} [مريم ٥٨] .

وفى هذا التعقيب ما يقطع أن هؤلاء الرسل الذين أنعم الله عليهم بالرسالة ، قاموا بتبليغ الدعوة إلى وحدانية الله خير قيام .

إذ هم كانوا من الخضوع لله بحيث إذا تليت عليهم آياته فى آية رسالة : خروا سجداً وبكياً ، من فرط إيمانهم بالله وطاعتهم له .

٣) إثبات بنزلة القرآن الكريم

وذلك واضح فى التركيز على أن ... الرسول صلى الله عليه وسلم وأن يعطى المعلومات من القرآن الكريم .

إذ هو المحفوظ بحفظ الله تعالى {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} وغيره لا حفظ له ولا انضباط فيه .

ولذا : لا يؤخذ إلا منه ، ولا يعتمد إلا عليه .

اقرأ قوله تعالى :

{واذكر فى الكتاب مريم ..} [الآيات ١٦-٤٠] .

{واذكر فى الكتاب إبراهيم ..} [الآيات ٤١-٥٠.] .

{واذكر فى الكتاب موسى ..} [الآيات ٥١-٥٣] .

{واذكر فى الكتاب إسماعيل ..} [الآيات ٥٤ ، ٥٥] .

{واذكر فى الكتاب إدريس ..} [الآيات ٥٦ ، ٥٧] .

ثم اقرأ قوله تعالى {فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً} [مريم ٩٧] .

فهو المصدر ولا مصدر سواه .

كما أنه مصدر ميسر يبشر وينذر .

٤) إثبات البعث بطريق عرض بعض مشاهد القيامة(١٦) .

فى مثل قوله تعالى {ويقول الإنسان أئذا مت لسوف أخرج حياً}

{أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً * فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً * ثم لننزعن كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً * ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً * وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً * ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً} [مريم ٦٦-٧٢] .

٥) الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه بغياً بينهم

إن سورة مريم تعد نموذجاً للحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه بغياً .

فلقد اختلف اليهود والنصارى حول المسيح بغياً .

قال اليهود عليهم اللعنة : إنه ابن زنى .

وقالت النصارى : إنه ابن الله .

وغير ذلك .

فجاءت سورة مريم تحسم هذا الخلاف .

حيث قال تعالى {ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قصى أمراً فإنما يقول له كن فيكون * وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراطى مستقيم * فاختلف الأحزاب من بينهم ..} [مريم ٣٤-٣٧] .

ولقد اختلف العرب واليهود والنصارى ، حول دين إبراهيم بغياً .

فجاءت السورة تحسم هذا الخلاف .

فخبره عنه أنه قال لوالده {سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كاان بى حفياً * وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعوا ربى عيسى ألا أكون بدعاء ربى شقياً} [مريم ٤٧-٤٨] .

وتحدثت السورة عن بعض أنبياء الله تعالى .

{ذكر رحمة ربك عبده زكريا} [مريم ٢] .

{واذكر فى الكتاب مريم} [مريم ١٦] .

{واذكر فى الكتاب إبراهيم} [مريم ٤١] .

{واذكر فى الكتاب موسى} [مريم ٥١] .

{واذكر فى الكتاب إسماعيل} [مريم ٥٤] .

{واذكر فى الكتاب إدريس} [مريم ٥٦] .

وبلغت أنهم من الرسل المبشرين المنذرين المؤمنين الذين هداهم الله ، وهدى الخلق بهم .

ولقد اختلف قومهم من بعدهم بغياً .

ومن ثم أرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالقرآن – ومنه سورة مريم – ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه .

٦) بيان منهج المهتدين ومنهج الضالين من أتباع النبى(١٦) (٢٦) .

ويتضح منهج الضالين فى

أ- تحذير إبراهيم عليه السلام لأبيه بقوله :

{يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً} ؟ [مريم ٤٢] .

{يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً} [مريم ٤٤] .

ب-وصف الله تعالى لبعض خلائف الأنبياء بقوله :

{فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات} [مريم ٥٩] .

فهم : يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر ، ولا يغنى عنهم من عذاب الله شيئاً .

وهم : يطيعون الشيطان ويتبعون خطواته لدرجة كأنها العبادة .

وهم – تبعاً لذلك – أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات .

وكلها صفات الضالين .

وهذا هو منهجهم .

كما يتضح منهج المهتدين فى :

أ- قوله تعالى {إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً} [مريم ٦٠] .

ب- قوله تــعالى {تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقياً} [مريم ٦٣].

فهم : يتوبون إلى الله تعالى من كل دعوى باطلة ومن كل عقيدة فاسدة .

وهم : يتقون فى هذا الدين وفى النبى الذى جاء به وفى الكتاب الذى احتوى تشريعاته ، وفى صلاحيته لانقاذ البشرية ، واخراجها – دائماً – من الظلمات والنور .

وهم : يعملون الصالحات التى يعجز من الكون وينصلح بها حال الدنيا وتسلم قيادها لهم ولريادتهم .

وهم فى كل ذلك وبعد كل ذلك وفوق كل ذلك يتقون الله ويراقبونه فى كل تصرفاتهم – وخلجات نفوسهم .

تاسعاً : تقسيم آيات السورة موضوعيا

هذه السورة تتكون من قسمين(١٧) :
القسم الأول : عبارة عن (٥٨) آية
من الآية الأولى ، وحتى نهاية الآية (٥٨) .
وفيه : قصة يحيى وزكريا عليهما السلام ، وقصة مريم وعيسى عليهما السلام ، ثم قصة إبراهيم عليه السلام ومجموعة من رسل الله عليهم السلام ، فى حديث هادف إلى بيان قدرة الله تعالى ، وتأكيد عبوديتهم له ، وتعريف بالرسل الذين بعثهم الله مبشرين ومنذرين .
والقسم الثانى : عبارة عن (٤٠) آية
من الآية (٥٩) حتى نهاية الآية (٩٨) .
وفيه : تذكير بالحال الذى عليه العرب ، والناس بعد الرسل ، وهى – فى ذات الوقت – تبشر وتنذر .
كما أن فيه توضيح لما خلف الأقوام به رسلهم من المخالفة ، والكون والملائكة لا تتنزل إلا بأمر الله ، وموقف الكافرين من اليوم الآخر ، ولادعائهم أن لله ولداً ، والرد عليهم .

عاشراً : أبرز موضوعات السورة

موضوعات هذه تنسال فى رفق وهدوء عبر القصص الوارد فيها .
ويلاحظ : أن القصص مادة رئيسية فيها ، وهذه المادة تستغرق حوالى ثلثى السورة .
إذ تبدأ بقصة زكريا ويحيى . فقصة مريم ، ومولد عيسى ، ... من قصة إبراهيم مع أبيه ، ثم تعقبها إشارات إلى النبيين : إسحق ويعقوب ، وموسى وهارن ، وإسماعيل ، وإدريس ، وآدم ، ونوح .
والثلث الأخير يستعرض بعض مشاهد القيامة ، وبعض الجدل مع المنكرين للبعث(١٦) .
ويسير سياق السورة – كما يقول سيد قطب – مع موضوعاتها فى أشواط ثلاثة :
الشوط الأول : "من آية ١ إلى آية ٤٠" ٤٠ آية .
يتضمن : قصة زكريا ويحيى ، وقصة مريم وعيسى .
والتعقيب على هذه القصة بالفصل فى قضية عيسى التى كثر فيها الجدل ، واختلفت فيها أحزاب اليهود والنصارى .
والشوط الثانى : "من آية ٤١ إلى آية ٦٥" ٢٥ آية .
يتضمن : حلقة من قصة إبراهيم مع أبيه وقومه ، واعتزاله لمادة الشرك ، وما عوضه الله من ذرية نسلت بعد ذلك أمة ، ثم إشارات إلى قصص النبيين ، ومن اهتدى بهم ، ومن خلفهم من العداوة ، ومصير هؤلاء وهؤلاء .
وينتهى بإعلان الربوبية الواحدة التى تعبد بلا شريك {رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً} [مريم ٦٥] .
والشوط الثالث والأخير : "من آية ٦٦ إلى آية ٩٨" ٣٣ آية .
ويبدأ بالجدل حول قضية البعث .
ويستعرض بعض مشاهد القيامة .
ويعرض صورة من استنكار الكون كله لدعوى الشرك .

وينتهى بمشهد مؤثر عميق من مصارع القرون {وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً} [مريم ٩٨] .

وخلال هذه الأشواط الثلاثة .

تكون الموضوعات الأساسية فى السورة :

١) وحدة الألوهية(١٥) :

وإبطال إدعاء بعض أهل الكتاب بأن لله ولداً هل تعلم له سمياً} [مريم ٦٥].

والشوط الثالث والأخير "من آية ٦٦ إلى آية ٩٨" ٣٣ آية .

ويبدأ بالجدل حول قضية البعث .

ويستعرض بعض مشاهد القيامة .

ويعرض صورة من استنكار الكون كله لدعوى الشرك .

وينتهى بمشهد مؤثر عميق من مصارع القرون {وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع له ركزاً} [مريم ٩٨] .

وخلال هذه الأشواط الثلاثة :

تكون الموضوعات الأساسية فى السورة :

١) وحدة الألوهية

وإبطال إدعاء بعض أهل الكتاب بأن لله ولداً .

وذلك : برسالة موسى وعيسى ذاتها .

وكذلك : برسالة من هم آباؤهم وأصول لهم من الرسل السابقين .

وثانياً : بإبطال نفس الإدعاء من المشركين الوثنيين بحجة واضحة ، وهى: أن الله تعالى ليس فى حاجة إلى نسل ، إذ كل ما فى السماوات والأرض من خلق الله وعباده .

٢) مسألة البعث(١٥)

وإبطال إنكار المشركين له ، إن هم وحدهم الذين ينكرون الآخرة بخلاف أهل الكتاب .

ويكفى لإبطال إنكارهم – كما توضح الآيات – أن يتذكر الإنسان نشأته ، فإذا عرف أنه خلق من عدم أى من لا شئ ، فيجب عليه أن يعرف بالتالى :

أن البعث ليس أمراً جديداً يختلف عن الخلق وليس يشق أمره ، بحيث يعجز عنه المولى سبحانه وتعالى .

وإذا كانت قضية الألوهية ، وقضية البعث هى أبرز ما تعنى به السورة : فهناك من الموضعات الفرعية التى تعرضت لها السورة الكثير والكثير .

وتشير إلى بعضها إجمالاً على النحو التالى .

٣) أسلوب الدعوة إلى الله تعالى .

وذلك فى قصة إبراهيم عليه السلام مع ابنه وقومه .

٤) إبراز المقابلة بين صورة المؤمنين وصورة الكافرين .

وذلك فى قوله تعالى :

{إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً * فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً} [مريم ٩٦ ، ٩٧] .

مع مقابلة قوله تعالى

{وكم أهلكنا قبلهم من قربن هل تحس منهم من أحد أو تسمع له ركزاً} [مريم ٩٨] .

إلى غير ذلك من الموضوعات التى حفلت بها هذه السورة .
وكذلك : مع عدم إغفالنا لما ذكر فى الحديث عن أهدافها .

وخلاصة ما تحتويه السروة الكريمة من المقاصد

(١) دعاء زكريا ربه أن يهب له ولداً سرياً مع ذكر الأسباب التى دعته إلى ذلك .

(٢) استجابة الله دعاءه وبشارته بولد يسمى يحيى لم يسم أحد من قبله بمثل اسمه .

(٣) تعجب زكريا من خلق ذلك الولد من أبوين : أم عاقر وأب شيخ هرم .

(٤) طلبه العلامة على أن امرأته حامل .

(٥) إيتاء يحيى النبوة والحكم صبياً .

(٦) ما حدث لمريم من اعتزالها لأهلها ، وتمثل جبريل لها بشراً سوياً ، والتجائها إلى الله أن يدفع عنها شر هذا الرجل ، وإخباره لها أنه ملك لا بشر .

(٧) حملها بعيسى عليه السلام وانتباذها مكاناً قصياً حتى لا يراها الناس وهى على تلك الحال .

(٨) نداء عيسى لها حين الولادة ، وأمرها بهز النخلة حتى تساقط عليها رطباً جنياً .

(٩) مجيئها بعيسى ومقابلتها لقومها وهى على تلك الحال وقد انهال عليها اللوم والتعنيف بأنها فعلت ما لم يسبقها إليه أحد من تلك الأسرة الشريفة التى اشتهرت بالصلاح والتقوى .

(١٠) كلام عيسى وهو فى المهد تبرئة لأمه ووصفه نفسه بصفات الكمال من النبوة والبركة والبر بوالديه وأنه لم يكن جباراً على خالقه .

(١١) اختلاف النصارى فى شأنه .

(١٢) قصص إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر ووصفه له بالجهل وعدم التأمل فى المعبودات التى يعبدها من دون الله ثم تحذيره إياه بسوء مغبة أعماله ، وردّ أبيه عليه مهدداً متوعداً .

(١٣) هبة الله إسحق ويعقوب ، وإيتاؤهما الحكم والنبوة .

(١٤) قصص موسى ومناجاته ربه فى الطور ، والامتنان عليه بجعل أخيه هارون وزيراً ونبياً .

(١٥) قصص إسمايعل ووصف الله له بصدق الوعد وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

(١٦) قصص إدريس عليه السلام ووصف الله بأنه صديق نبى رفيع القدر ، عظيم المنزلة عند ربه .

(١٧) مجئ خلف من بعد هؤلاء الأنبياء أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات .

(١٨) وعد الله لمن تاب وآمن وعمل صالحاً بجنات لا لغو فيها ولا تأثيم .

(١٩) إن جبريل لا ينزل إلى الأنبياء إلا بإذن ربه .

(٢٠) إنكار المشركين للبعث استبعاداً له ، ورد الله عليهم بأنه خلقهم من قبل ولم يكونوا شيئاً .

(٢١) الإخبار بأن الله يحشر الكافرين يوم القيامة مع قرنائهم من الشياطين ثم يحضرهم حول جهنم جثياً ، ثم بدئه بمن هو أشد جُرماً والله أعلم بهم .

(٢٢) الإخبار بأن جميع الخلق ترد على النار ثم يجئ الله الذين اتقوا وينذر الظالمين فيها جثياً .

(٢٣) بيان أن المشركين إذا سموا القرآن فخروا على المؤمنين بأنهم خير منهم مجلساً وأكرم منهم مكاناً .

(٢٤) تهديدهم بأنه أهلك كثيراً ممن كان مثلهم فى العتو والاستكبار ، وأكثر أثاثاً ورياشاً .

(٢٥) بيان أن الله يُمد الظالم ويمهله ، ليجترح من السيئات ما شاء ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر .

(٢٦) النعى على المشركين باتخاذ الشركاء ، وأنهم يوم القيامة سيكونون لهم أعداء .

(٢٧) نعى النبى صلى الله عليه وسلم عن طلب تعجيل هلاك المشركين ، إذ أن حياتهم مهما طالت فهى محدودة معدودة .
(٢٨) التفرقة بين حشر المتقين إلى دار الكرامة ، وسوق المجرمين إلى دار الخزى والهوان .
(٢٩) النعى الشديد على من أدعى أن لله ولداً .
(٣٠) بيان أن الله قد أنزل كتابه بلسان عربى مبين ، ليبشر به المتقين ، وينذر به الكافرين ذوى اللدد والخصومة .

حادى عشر : بعض الدروس المستفادة

١) لما قرئ صدر هذه السورة على النجاشى ملك الحبشة من المسلمين المهاجرين إليها . بكى حتى أخضل لحيته ، وبكى أساقفته حتى أخضلوا إلحاهم حين سمعوا ما يتلى عليهم وهم الذين نزل فيهم قوله تعالى {ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون} [المائدة ٨٥] .
وقد كانت هذه السورة واستجارة المسلمين سبباً فى إسلامه .
٢) حرف (ص) لم يرد فى فواتح السور إلا فى ثلاث منها فقط .
أول الأعراف (المص) .
أول مريم (كهيعص) .
أول ص (ص) .
ويلاحظ : أن كل سورة من هذه السور الثلاث جاءت فى ثلث من أقسام القرآن الكريم الثلاثة .
٣) فى قوله تعالى {يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً * وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً * وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً} [مريم ١٢-١٤] .
نقاط هامة فى تربية الأطفال (١٧)
فقوله تعالى {خذ الكتاب بقوة} .
فيه : وجوب تربية الطفل على أخذ العلم بجد وعزم .
وقوله {وآتيناه الحكم صبياً} .
فيه ك وجوب تربية الطفل على فهم الحكمة والتحقق بها ، والتحلى بها ، كى يكون عاقلاً حكيماً .
وقوله {وحناناً من لدنا وزكاة} .
فيه : وجوب تربية الطفل على الأخلاق الفاضلة وضرورة توافر صفة الحنان عنده ، والتقوى والطهارة فى أخلاقه والإستقامة فى سلوكه .
وقوله {وكان تقياً} .
فيه : وجوب تربية الطفل على التقوى من الله تعالى ، والإسلام ، والطاعة له .
وقوله {براً بوالديه} .
فيه : وجوب تربية الطفل على البر بوالديه وصلة أرحامه ومودة أقاربه ، وتجنبيه العقوق .
وقوله تعالى {ولم يكن جباراً عصياً}
فيه : وجوب تربية الطفل على التواضع والطاعة .
٤) من حصيلة تعرض السورة إلى الخلافات التى وقعت بين الناس بغياً ، وحسمت السورة فيها الموقف .
يلوح أمر لهذه الأمة .

وهو : أن عليها أن تحذر ما وقعت فيه الأمم الأخرى بعد رسلها من خلافات .
أملاً فى : نجاتها من مغبة هذه الخلافات .
وتوصلاً : لأن تكون من المهتدين .
٥) ورد فى هذه السورة بعض ألفاظ
يرى من تمام الفائدة أن توضح معانيها(٢٠)
وهذه الألفاظ :
"الصادق – الصديق – المخلِص – المخلَص" .
أ- فالصادق : هو المستقيم فى الأفعال .
وقال إبراهيم الخواص : الصادق لا تراه إلا فى فرض يؤديه ، أو فضل يعمل فيه .
وقيل : ثلاثة لا تخطئ الصادق : الحلاوة ، والهيبة ، والملاحة .
وقال أحمد بن خضروية : من أراد أن يكون الله تعالى معه ، فليلزم الصدق ، فإن الله تعالى قال {إن الله مع الصادقين} [البقرة ١٥٣] .
ب- والصديق : هو الذى يزيد على ذلك استقامته على الصدق فى جميع أقواله ، وأفعاله وأحواله ، وهى تلى درجة النبوة .
ففى الحديث (ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً)(٢١) .
وفى القرآن الكريم {فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين} [النساء ٦٩] .
جـ- والمخلِص : هو الذى يعمل لله ولا يجب أن يحمده أحد .
وقال ذو النون المصرى : ثلاث من علامات الإخلاص : استواء المدح والذم بين الناس ، ونسيان رؤية الأعمال فى الأعمال ، ونسيان اقتضاء ثواب العمل فى الآخرة .
د- والمخلَص : من أخلصه الله له فلم يبق فيه حظ بغير الله .
قال أبو بكر الدقاق : إذا أراد الله تعالى أن يخلص إخلاص عبد اسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه ؛ فيكون مخلَصاً لا مخلِصاً .
وعلى كل :
فإن العلاقة بين الصدق والإخلاص : قوية جداً .
فقد قال ذو النون :
الإخلاص : لا يتم إلا بالصدق فيه والصبر عليه .
والصدق : لا يتم إلا بالإخلاص فيه ، والمداومة عليه .
يقول تعالى {واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً} [مريم ٥١] .
ويقول تعالى {واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً} [مريم ٥٤] .
ويقول تعالى {واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً} [مريم ٥٦] .

ثانى عشر : مصادر المفاتيح و هوامش البحث

١- أنظر : السخاوى .. جمال القراء ٣٧/١
الفيروزابادى .. بصائر ذوى التمييز ٣٠٥/١
القرطبى .. الجامع لأحكام القرآن (تفسير سورة مريم)
الآلوس .. روح المعانى (" " ")

القاسمى .. محاسن التأويل (" " ")
السيوطى .. الاتقان ٦/١.
٢- الفيروزابادى .. (مصدر سابق)
٣- أنظر : الآلوس .. (مصادر سابقة)
٤- القاسمى .. (مصدر سابق)
٥- سليمان الجمل .. الفتوحات الإلهية (تفسير سورة مريم)
٦- محمد فؤاد عبد الباقى .. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم
٧-أنظر : السخاوى ، الفيروزابادى ، القرطبى ، الآلوس (مصادر سابقة)
٨- الفيروزابادى .. (مصدر سابق)
٩- الآلوس .. (مصدر سابق)
١٠- القرطبى .. (مصدر سابق)
١١- أنظر : ... .. التبصرة ص ٢٥٥
السخاوى .. جمال القراء ٢,٦/١
الآلوس .. روح المعانى (تفسير سورة مريم)
نثر المرجان ٢٠١/٤
١٢- السيوطى .. (مصدر سابق)
١٣- أنظر: الآلوس .. (مصدر سابق)
المراغى .. تفسير المراغى (تفسير سورة مريم)
١٤- أنظر : سيد قطب .. فى ظلال القرآن (" " ")
د/ محمد البهى.. تفسير سورة مريم ص ٣ وما بعدها .
١٥- د/ محمد البهى.. (مصدر سابق)
١٦- سيد قطب .. (مصدر سابق)
١٧- سعيد حوى .. الأساس فى التفسير (تفسير سورة مريم)
١٨- المراغى .. تفسير المراغى (" " ")
١٩- أنظر الموضوع بتوسع فى :
القرطبى .. الجامع لأحكام القرآن (تفسير سورة مريم)
ابن كثير .. تفسير القرآن العظيم (" " ")
ابن هشام .. السيرة النبوية ٣٣٤/١
٢٠- أنظر : الإمام الزمشرى.. الرسالة .... ٤٤/٢. وما بعدها
سعيد حوى مصدر سابق
٢١- رواه : مسلم .. كتاب البر ، باب فتح الكذب ، وحسن الصدق .

فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر